بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

طسٓمٓ ﴿٢﴾

التفسير: لقد استهلت هذه الآية بمقطع ﴿طسم﴾ الذي هو اختزال للطيف والسميع والمالك أو المجيد.. والمعنى أن الله لطيف فيعامل الناس بلطف ورفق ولا يمارس عليهم الشدة والجبر. ثم إنه تعالى سميع.. أي أنه أنـــزل هذا القرآن لهداية الناس حين انحرفوا عن سبيل الهدى وانطلقت الصرخات من قلوبهم. ثم إنه مالكُ الخَلق، فما كان لائقًا به أن يترك عباده بدون هدى. أو أن الميم في ﴿طسم﴾ اختزال للمجيد، والمراد أن الله ذو مجد فما كان له أن يترك عباده الضعفاء بدون هدى ولا يتفقد أحوالهم.

وبما أن هذه الصفات الإلهية قد وردت في مستهلّ سورة الشعراء أيضًا فموضوع هاتين السورتين متماثل في الواقع.

يظن بعض الناس لعدم تدبُّرهم في القرآن الكريم أن آياته وسوره مبعثرة لا ترتيب فيها ولا يربطها رابط. والحق أن المرء يكتشف بأدنى التدبر أن هناك حكمة بالغة في ترتيب سور القرآن الكريم، كما أن آياته وثيقة الصلة بعضها ببعض. خذوا مثلاً سورتي الشعراء والقصص، فقد استهلت كل واحدة منها بقوله تعالى ﴿طسم﴾، ثم بعد مقطع ﴿طسم﴾ قال الله تعالى في سورة الشعراء ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، كذلك قال تعالى في هذه السورة أيضًا ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، مما يدل دلالة واضحة أن هذه المقاطع قد وُضعت في مستهل السور لهدف خاص وأن المقاطع المماثلة تدل على موضوع واحد.

وقد سبق أن بيّنّا لدى تفسير سورة النمل أن الله تعالى قد استهلّها بقوله ﴿طس﴾، خلافًا لسورة الشعراء التي استهلها بقوله تعالى ﴿طسم﴾؛ وذلك لأن مجد الله وجلاله قد انكشف بواسطة النبي ﷺ – الذي ورد ذكره في سورة الشعراء–

أكثر مما انكشف من خلال موسى وسليمان – عليهما السلام – الوارد ذكرهما في سورة النمل. أما سورة القصص فقد استهلها الله تعالى بمقطع ﴿طسم﴾ مرة أخرى مضيفًا "الميم" إلى ﴿طس﴾، وذلك لأن هذه السورة أيضًا تركز على ذكر النبي ﷺ وخاصة على فتح مكة الذي قد تجلّى به مجد الله وجلاله أيما جلاء.

تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾

التفسير: أي أن آيات هذه السورة هي آيات الكتاب المبين.. بمعنى أنه الكتاب الذي يبين مضامينه تبيانًا، وبتعبير آخر يبيّنها مدعمة بأدلتها.

والحق أن هذه الآية تمثل ردًّا على سؤال نشأ على قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾، وهذا السؤال هو: لماذا بُعث محمد منذرًا فقط ولِم لم يُسمَح له بالجبر والإكراه؟ فأجاب الله بأن الكتاب الذي نـــزل على محمد يذكر جميع المواضيع والقضايا مصحوبة بأدلتها، ومن أتى بكتاب مدعم بالأدلة والبراهين على كل ما فيه من دعاوي، فليس له حاجة للجوء إلى الجبر والإكراه، لأن الذي يتدبر في كلامه بصدق سينال الهدى، أما الذي لا يُعمل فكره فيه فلا فائدة في إكراهه، لأن الذي لم ينفعه الدليل والبرهان لن ينفعه الجبر والإكراه أيضًا.

نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾

التفسير: أي يا محمد، نسرد عليك قصة موسى كمثال على أن الله سميع ولطيف، واعلم أن ما نسرده هو الحق.. أي قد تسربت إلى قصة موسى الواردة في التوراة كثير من أفكار البشر، ولكننا نسردها لك على حقيقتها منـــزهةً عما شابها من أفكار الناس.

وإن ما كتبه القسيس "ويري" في ملاحظاته التفسيرية على هذه الآية يؤكد صدق ما أعلنه القرآن هنا، إذ يقول "ويري" إن محمدًا لم يذكر هنا كل أحوال موسى، مما يدل على أن أحوال اليهود وصلت إليه بصورة ناقصة. (تفسير القرآن لويري)

ولكن الله تعالى قد أخبر نبيه ﷺ في القرآن الكريم من قبل نظرًا إلى اعتراض القس ويري وأمثاله أن القصة الحقيقية هي ما نسرده عليك في القرآن الكريم، أما ما يصل إليك من أخبار موسى من مصادر أخرى فلا تصدقه لأنه خلاف الحقيقة.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

شِيَعًا: الشيع جمعُ الشيعة، وشيعةُ الرجل: أتباعُه وأنصاره، والشيعةُ: الفِرقة. (الأقرب)

يحذَرون: حذِر يحذَر حِذْرًا وحَذَرًا ومحذورةً: تحرَّزَ منه. (الأقرب)

التفسير: أي أن قصة موسى الحقيقية هي أن فرعون تكبر وتجبر مغترًّا بحكمه وقوته، وأخذ في العدوان على الناس وظلمهم، ولم يعدل مع رعيته، ولم يهتم برقيهم، بل كان يحرّض بعض الفئات ضد بعض، فكان ينحاز لبعض الفئات ضد

غيرها التي كان يحتقرها و لم يكن يعتبر حكومته مسؤولة عن حمايتها. لقد سعى لإضعاف طائفة من الناس، إذ قتل الذكور من أولادهم واستبقى بناتهم على قيد الحياة. ولا شك أنه عاث في الأرض الفساد، فقررنا عندها – كما قررنا الآن أيضًا – أن نمنّ على الذين يُستضعفون في الأرض ونجعلهم الوارثين في الأرض ونجعلهم الأقوياء في البلاد ونعطيهم النعم التي كان يتمتع بها فرعون وأقاربه. كما قررنا أن نُري فرعون ومساعدَه هامانَ وجنودهما مصيرًا كانوا يخافونه.. إذ كانوا يحذرون من أن تتقوى بعض الشعوب في البلاد فتشكل عليهم خطرًا.

ويتضح من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أن فرعون كان يعمل بحسب الخطة المعروفة: "فَرِّقْ تَسُدْ"، فكان يدفع مختلف فئات المجتمع إلى التناحر فيما بينها كي يظل الناس مشتتي الشمل ولا ينتبهوا إلى ما يرتكبه من مظالم وفظائع ضد المجتمع. وكما أن الجبابرة ينصرون بعض القبائل ويهينون الأخرى لتظل نيران التباغض والتناحر مضطرمة بينها بشكل دائم، فكذلك سعى فرعون أن يظل الإسرائيليون وغيرهم في خصام دائم صرفًا لأنظار القوم عن فظائع ترتكبها حكومته. والقرآن الكريم يشجب هذه الخطة الخبيثة بشدة ويعتبرها أساسًا للفساد في الأرض، داعيًا إلى ضرورة سيادة القانون على الجميع بدون تمييز بين الفقير والثري والعالم والجاهل. والحق أن من المحال أن تنجح دولة في إرساء السلام في الدنيا إلا إذا امتنعت كليةً عن التمييز بين شتى فئات المجتمع و لم يدفعها الاختلاف القومي أو العرقي أو الوطني أو الديني إلى القضاء على مقتضيات العدل والإنصاف.

كان فرعون يريد إضعاف بني إسرائيل فأراد القضاء على نسل بني إسرائيل مستعينًا بالقابلات، لكنه فشل في خطته لأن القابلات لم يقتلن مواليدهم رحمة بهم. فأمر بقتل الذكور من أولاد الإسرائيليين غرقًا في النهر وباستبقاء إناثهم على قيد الحياة، وقد جاء تفصيل ذلك في التوراة كالآتي: "وكلّم ملكُ مصر قابلتَي العبرانيات اللتين اسم إحداهما شِفرَةُ واسم الأخرى فُوعَةُ، وقال حينما تُولّدان العبرانيات وتنظُرانهن على الكراسي إن كان ابنًا فاقتلاه وإن كان بنتًا فتحيا. ولكن القابلتَين خافتا الله و لم تفعلا كما كلّمهما ملكُ مصر، بل استحيتا الأولاد. فدعا

ملك مصر القابلتَين وقال لهما: لماذا فعلتما هذا الأمر واستحييتما الأولاد؟ فقالت القابلتان لفرعون إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات، فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة. فأحسن الله إلى القابلتين. ونما الشعب وكثُر جدًا. وكان إذ خافت القابلتان الله أنه صنع لهما بيوتًا. ثم أمر فرعون جميعَ شعبه قائلاً كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها." (الخروج ١: ١٥- ٢٢)

أما قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ فقد ظن البعض خطأً أن فرعون كان يقتل أولادهم خنقًا، ولكنه كلام غير سليم، لأن الذبح يعني القتل أيضًا (تاج العروس)، وعليه فالمراد من قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أن فرعون كان يقتل أولاد بني إسرائيل سواء أكان هذا القتل غرقًا أو بأي طريقة أخرى. وقد أوضح القرآن الكريم هذا الأمر في موضع آخر فقال إن المصريين كانوا: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾(الأعراف: ١٤٢)

علمًا أنه عند الحديث عن قتل أولادهم في سورة البقرة قد قال القرآن الكريم: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾(الآية:٥٠) بدلاً من "يَذْبَحون"، وذلك لأن باب التفعيل يفيد الشدة والمبالغة، فلو قال "يَذبَحون" لكان معناه أنه كان يقتلهم، ولكنه قال ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ ليشير إلى شدة حقد قوم فرعون تجاه الإسرائيليين، وليبين أنهم كانوا يبحثون عن كل مولود جديد لهم ويقتلونه.

أما قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، فلفظ ﴿نريد﴾ هو صيغة المضارع الذي يفيد الحال والاستقبال أيضًا، فكأن الله تعالى قد أشار بذلك أنه لم يُرد في زمن موسى فحسب، بل يريد الآن في زمن محمد أيضًا أن يهب القوة للذين تريد بلادهم إضعافهم عدوانًا لأنهم من المظلومين. لا شك أن محمدًا ﷺ لم يُسمح له بالإكراه، ولكن الله تعالى كما دمّر فرعون وملأه بتدبير من السماء ونصر القوم الذين كانوا عرضة لفظائعه وجعلهم غالبين، كذلك سيدمر الله تعالى أهل مكة بتدبير من السماء ويجعل أتباع محمد ﷺ هم الغالبين. أما التدبير الذي يتخذه الله تعالى لتنفيذ مشيئته هذه فهو مذكور في مستهل هذه السورة، حيث بين تعالى أن الكلام الذي

نـــزل على محمد مليء بالحكمة ومدعم بالأدلة، وسيفتح الله بتأثير هذا الكلام قلوب الناس. وكأن الله تعالى يعلن هنا أنه سيُظهر لمحمد نفس النتيجة التي أظهرها في زمن موسى عليه السلام، ولكن هناك فرق هو أن موسى قد اضطر لممارسة نوع من الجبر والقسوة على قومه ليعملوا بأحكام الله تعالى، كما لم يؤمن بموسى قومه كلهم وإنما انضم إليه معظمهم من أجل المصالح السياسية كما هو ظاهر من التوراة، حيث ظلوا يعترضون عليه في شتى المناسبات زمنًا طويلا. أما محمد ﷺ فإن الكلام الذي نـــزل عليه مليء بالحكمة ومدعم بالدليل، فسيؤمن به قومه من الصميم وسينالون من العز والشرف أكثر مما ناله قوم موسى. لقد ورث بنو إسرائيل جزءًا مما تمتع به فرعون من القوة والشوكة، أما قوم محمد ﷺ فسينالون عزة وغلبة أكبر لأن معهم الكتاب المبين.

وقد بين الله تعالى هذا المعنى في موضع آخر من القرآن الكريم حيث قال: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(الفرقان: ٥٣).. أي يا محمد، ستضطر للخوض في الحروب المادية، ولكن ليست الحروب غاية حياتك بل هي جزء ضئيل من منجزاتك، إنما غايتك أن تحارب قومك بالقرآن الكريم، وهذه هي الحرب الكبرى التي لا تضاهيها الحرب بالسيف والسنان أبدًا.

وقد تحققت هذه النبوءة القرآنية بشكل مذهل. لا شك أن مسلمي مكة قد اضطروا لمحاربة بعض القبائل العربية، ولكنها كانت قبائل صغيرة وكانت نتيجة تلك الحروب أيضًا صغيرة، أما الحرب بالقرآن الكريم فقد خاضها النبي ﷺ ضد العرب وضد الفرس ثم ضد العالم كله، وهي مستمرة حتى اليوم، وعندما تظهر نتائجها الأخيرة ستُفتح قلوب العالم كله للإسلام، لتمتد مملكة محمد رسول الله ﷺ إلى كل أنحاء العالم قافزةً من فوق السهول والجبال. أما الحروب المادية فنتائجها أقل بكثير من نتائج هذه الحرب الروحانية، ولكن الغريب أنه برغم وجود هذه الآيات البينة في القرآن الكريم لا يزال الغرب يعترض بأن محمدًا (ﷺ) قد أخضع العدو بالحروب. مع أن انتصارات النبي ﷺ لو كانت متوقفة على الحروب المادية لما اعتبر القرآن الكريم الجهاد بالقرآن أكبر من الحرب المادية، ولما قال الله لنبيه ﷺ:

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.. أي أن الحرب الحقيقة التي تخوضها إنما تتم بسلاح القرآن الكريم، فحارِب به العدو لأن هذه هي الحرب الكبرى.

ومن المستغرب أن هذه الآية – التي تتحدث عن نوعين من الجهاد: جهاد صغير وهو الذي يكون بالسيف، وجهاد كبير وهو الذي يكون بالأدلة والبراهين – مكيةٌ، وهذا يعني أن الله تعالى قد أخبر نبيه ﷺ وهو في مكة حين لم يكن عنده جيش ولا مُلك بأنه سيضطر لخوض الحروب ضد أعدائه بعضها بالسيف والسنان وبعضها بالدلائل والبراهين، وأن الحرب بالدلائل هي أكبر من الحرب بالسيف. وقد بين النبي ﷺ بنفسه الفرق بين هاتين الحربين حين رجع مرة بعد قتال العدو بالسيف فقال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" (ردُّ المحتار على الدرّ المختار: كتاب الجهاد).. أي رجعنا من حرب صغرى لنخوض الآن حربًا كبرى وهي حرب الدلائل والبراهين وإشاعة القرآن الكريم. إذًا، فإن النبي ﷺ أيضًا قد اعتبر حرب الأدلة والبراهين حربًا أكبر من حرب السيف والسنان.

هذا، وقد اعترض المستشرق سيل (Sale) في ترجمته الإنجليزية للقرآن الكريم على شخصية هامان المذكور هنا، وقال إن القرآن الكريم قد اعتبر هامان معاصرًا لفرعون مع أنه كان وزيرًا للملك الفارسي أَحَشْوِيرُوش الذي خلا قبل موسى بزمن طويل. وأضاف "سيل" وقال إن إقناع أحدٍ من المسلمين بهذا الخطأ الواضح صعب جدًا إذا لم يكن محالاً. (ترجمة "سيل" للقرآن ص ٣٧٨)

وقد أعاد القسيس ريفرند ويري هذا الاعتراض في تفسيره للقرآن الكريم كما فعل عديد من المستشرقين الآخرين أيضًا فقال: لم يكن هامان وزيرًا أو مسؤولاً كبيرًا عند فرعون بل كان وزيرًا لملك فارسي كان في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد وضع هامان في عهد الملك أَحَشْوِيرُوش خطّةً لإبادة اليهود بشكل شامل، ولكن الملك سخط عليه وقتله صلبًا. (تفسير القرآن لويري)

وقد أسس المستشرقون الأوروبيون اعتراضهم هذا على ما ورد في التوراة كالآتي:

"عظّم الملكُ أَحَشْوِيرُوش هامانَ بنَ هَمَداثَا الأَجاجيَّ ورقَّاهُ وجعَل كرسيَّه فوق جميع الرؤساء الذين معه. فكان كلُّ عبيد الملك الذين بباب الملك يجثُون ويسجدون لهامان لأنه هكذا أوصى به المَلِكُ، وأمَّا مُرْدَخايُ فلم يَجْثُ ولم يسجد. فقالَ عبيدُ المَلِك الذين بباب الملك لمُرْدخاي: لماذا تتعدى أمرَ الملك؟ وإذ كانوا يُكلِّمونه يومًا فيومًا ولم يكن يسمَع لهم أخبروا هامانَ ليروا هل يقومُ كَلامُ مُردخَاي لأنهُ أخبرَهم بأنه يهوديٌّ. ولما رأى هامانُ أن مُردَخاي لا يجثو ولا يسجد له امتلأ هامانُ غضبًا وازْدُرِيَ في عينيه أن يمدّ يده إلى مُرْدَخايَ وحده لأنهم أخبروه عن شعب مُرْدَخايَ، فطلب هامان أن يُهلِك جميعَ اليهود الذين في كل مملكة أَحَشْوِيرُوش شعبَ مُرْدَخايَ." (أَسْتِير ٣: ١- ٦)

ثم تقول التوراة إن هامان فشل في مكيدته لأن الملكة "أَسْتِير" اليهودية حرّضت الملكَ ضد هامان، فأمر بقتله.

وبناءً على هذه الرواية في سِفر أَسْتِير أنكر المستشرقون وجود شخص معاصر لفرعون باسم هامان. ولكن الغريب أن الكتاب الذي يبنون عليه اعتراضهم ضد القرآن الكريم مشكوك فيه وغير قابل للثقة به عند الباحثين المسيحيين أنفسهم، حيث لا يصدّقون ما ورد فيه من أحداث. فقد صرّح مارتن لوثر وغيره من العلماء المسيحيين أن قصة أَسْتِير هذه مجردُ خرافة مليئة بالمبالغات. بل قالوا: لم يوجد في القرن الخامس قبل الميلاد أيُّ ملك فارسي كان له وزير باسم هامان، كما لم تكن عند الملك أَحَشْوِيرُوش ملكة اسمها أَسْتِير، ولا يصدق التاريخ كل هذه القصص الخرافية التي جُمعت في هذا السفر.

(Black's Bible Dictionary: p.174 Under: Esther. والموسوعة التوراتية: تحت كلمة: Esther)

فما دام الكتاب الذي بنوا عليه اعتراضهم هو موضع طعن وشك من قبل المسيحيين أنفسهم حيث لا يعتبرونه مصدرًا تاريخيًا موثوقًا به؛ فكيف يصحّ الطعن في القرآن الكريم بناءً على مصدر مشكوك فيه؟

لقد ذكر القرآن الكريم عن هامان الأمور التالية:

الأول: كان هامان يتمتع بقوة عسكرية في مصر، إذ كان عنده جنود كما كانت عند فرعون حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾(القصص:٩)، كما صرح تعالى في الآية قيد التفسير أيضًا فقال: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

والثاني: يتضح من القرآن الكريم أن هامان كان عمله الإشراف على بناء العمارات الشاهقة والقلاع وغيرها، حيث قال الله تعالى حكاية عن فرعون ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(القصص: ٣٩). علمًا أن قول فرعون ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني أن هذا لا يعني أني قد اقتنعتُ بصدق موسى، كلا، بل أعتبره كاذبًا، بيد أن تصرفي هذا سيُقنع الآخرين أيضًا بكذبه وافترائه.

والآن لو عثرنا في تاريخ مصر القديم على شخصية معاصرة لفرعون موسى وكانت تتمتع بقوة عسكرية، وكان عملها الإشراف على بناء المباني الشاهقة والقلاع لثبت صدق القرآن بكل جلاء.

تكشف لنا دراسة التاريخ أن المصريين القدماء كانوا يعبدون آلهة كثيرة، وكان كل واحد منهم ينتمي إلى إله معين أو آلهة عديدة، وكان سكان العاصمة المصرية "طيبة" (Thebos) يدْعون إلههم "آمان" أو "آمون"، وكان يسمى في القديم "آمانا"، ثم اشتهر باسم "آمان" و"آمون". ولما كان "آمان" هو إله سكان العاصمة المصرية، وحيث إن العاصمة هي أشد تأثيرًا على المناطق الأخرى من البلاد، فكان لزامًا أن يتفوق الإله "آمان" على الآلهة الأخرى بالتدريج، وهذا ما حدث فعلاً، حيث أصبح هذا الاسم مقدسًا جدًا، فبدأ الناس يُكثرون من استعمال لفظ "آمان" كاسم أو لقب، شأن المسلمين الذين يضيفون اسم الله تعالى إلى أسماء أولادهم. (تاريخ مصر لجيمس هنري بريستد ص ٦٠٤)

فلما ازداد الإله "آمان" شعبيةً أصبح كاهنُ "آمان" رئيسًا للكهنة كلهم، فازداد نفوذه حتى أصبحت في قبضته كلُّ الأملاك والعقارات والمعابد التي كانت وقفًا للإله "آمان." (تاريخ الملل القديمة لسنيوجس، ترجمة سيد محمود أعظم فهمي ص ٣٩)

ويقول جيمس هنري بريستد في كتابه "تاريخ مصر":

لقد ظهرت في العصر الجديد لحكومة مصر – بالإضافة إلى القوة العسكرية – حركة مؤثرة وقوية جديدة كانت مبنية على نظام الكِهانة. والحق أنه كنتيجة طبيعية لثروة المعابد الهائلة أخذت الكِهانة صورة مهنة معينة. وبقدر ما ارتفع عدد الكهان ازدادوا كقوة سياسية. وكلما زادت ثروة المعابد نشأت معها جماعة كبيرة للموظفين في المعابد أيضا، وكانت مسؤوليتهم أن يشرفوا عليها، رغم أنه لم يكن لهم وجود في الأيام الخالية. وفي نهاية المطاف اتحد نظام كافة المعابد للآلهة المختلفة في البلاد تحت منظمة عظيمة ومقدسة. وكان الكاهن الأعظم في معبد آمان في العاصمة "طيبة" رئيسها الأعلى. وهكذا تضاعفت قوة الكاهن الأعظم في معبد الإله "آمان" أضعافا مضاعفة مقارنة بما كانت عليه من قبل. وعندما حاز فراعنة مصر الثروة من بلاد مفتوحة حُوِّل النصيبُ الأكبر منها إلى المعابد، وبالتالي تحولت المعابد إلى قصور واسعة وعظيمة يسكنها جماعات عديدة من الكهان. كان الكاهنُ الأعظم في معبد "آمان" الرئيسَ الأعلى لهذه المنظمة الدينية المقدسة، وكان يُعتبر أميرا مقدسا، وكانت زوجته تُلقَّب "جارية الله العليا"، وكانت حائزة على مرتبة الملكة." (تاريخ مصر، لـــ جيمس هنري بريستد ص٢٤٧- ٢٤٨)

وكانت لكاهن الإله "آمان" ألقاب عديدة، غير أنه كان يسمى عادة "هَمْ آمَان"، مثلما كانوا يطلقون اسم "هَمْ رَعْ" على الكاهن الأعظم للإله "رَعْ"، واسم "هَمْ كَا" على الكاهن الأعظم للإله "كَا".

(The Dwellers on the Nile by sir E A Wallis Budge KT. P. 148- 163- 173)

وكلمة "هَمْ" تعني حرفيًا الخادم أو العبد، فالمراد من "هَمْ آمان" خادم أو عبد الإله آمان، ولكنها تعني مصطلحًا الكاهن الأعظم.

علمًا أن فرعون الذي تربى موسى عليه السلام في بيته هو "رعمسيس الثاني"، أما فرعون الذي هلك بسبب عدائه لموسى عليه السلام فهو "مِنْفتَاح". وقد تم انتخاب الكاهن الأعظم للإله "آمان" أول مرة في عهد "رعمسيس الثاني"، وفي عهده أيضًا

اعتُبر هذا الكاهن عضوًا مرموقًا في الحكومة. فقد كتب "ألكسندر موريت" في كتابه "النيل والحضارة المصرية":

لقد عيّن رعمسيسُ الثاني في العام الأول من حكمه شخصا اسمه "نَيْبُنِف" (Nebunnef) ككاهن أعظم لآمان. كان الملك قد قرر من قبل بتعيينه كاهنا أعظم للإله "هاتور" ولجميع آلهة مصر، ولكنه (أي الملك) لم يعلِن تعيينه بصورة رسمية إلا بعد أن عرض على إلهه "آمان" في معبد "كرنك" أسماءَ جميع المسؤولين والكهان والزعماء في البلاط لهذا المنصب، ولكن إله "آمان" لم يرض إلا باسم نَيْبُنِف. وعندما تمت عملية الانتخاب قال الملك مخاطبا نَيْبُنِف: منذ الآن تكون أنت الكاهن الأعظم في آمان. وإن كنزَيْ معبد آمان ومستودعات الغلال تكون تحت خاتَمك، وإن معبد الإله "هاتور" سيكون من الآن تحت عصا حكومة ابنك، ويحتل ابنك المنصب نفسه الذي كان خاصا بك. فقام جميع أركان البلاط وقُضاته الثلاثة بتهنئة الملك والكاهن الأعظم على هذا الانتخاب. ثم وهب الملكُ خاتمين ذهبيين خاصين به والعصا الملكية الذهبية لـ نَيْبُنِفَ وعيّنه على منصبه وخلع عليه الألقاب التالية:

١- الكاهن الأعظم لآمان
٢- مدير أعلى للكنوز والمستودعات
٣- مدير عام لجيوش مصر
٤- مدير أعلى لجميع الصنّاع وأصحاب الحِرف في العاصمة "طيبة".

(The Nile and Egyptian civilization by Alexender Moret p.334)

لقد تبين من ذلك أن الكاهن الأعظم للإله "آمان" كان أكثر الناس قوةً في مصر بعد فرعون في عصر موسى عليه السلام، وكان له نفوذ في الجيش، كما كان يشرف على بناء المعابد.

ويقول جيمس هنري بريستد عن "هَمْ آمان": إنه (أي رعمسيس الثاني) قسم الجنود في أربع كتائب، وسمى كل كتيبة باسم آلهته الكبيرة: "آمان" و "رَعْ" و "فِتَاح" و"ستِيخ"، وتولى بنفسه قيادة كتيبة الإله "آمان." (ص ٢٤٥)

لقد ثبت مما سبق أن كاهن الإله "آمان" كان الرجل الثاني في مصر بعد فرعون في زمن موسى عليه السلام. وحيث إن "آمان" كان يُعتبر سيد الآلهة فقد اعتُبر كاهنه أيضًا الرئيس الأعلى للنظام الديني، كما كان المشرفَ الأعلى على الكنوز والخزائن والمستودعات للمعابد، وكان يتقلد منصب القائد الأعلى للجيش، وكان ذا سلطة ونفوذ حتى سُمّيت إحدى كتائب فرعون باسمه. كما سُمِّي الرئيس الأعلى للصنّاع والمعماريين أيضًا لكونه المشرف الأعلى على بناء المعابد كلها، إذ يتضح من التاريخ أن المصريين كانوا يبنون معابد فخمة ومقابر وقصورًا وتماثيل كبيرة للآلهة في كل مكان، وكان كاهن الإله "آمان" يشرف على هذه الأعمال كلها. (الموسوعة البريطانية: تحت كلمة Egypt)

إذًا، فالشخصية التي سماها القرآن الكريم "هامان" ليست شخصية خرافية، بل هي شخصية تاريخية كبيرة، وكانت تسمى في مصر القديمة "هَمْ آمان" و "هَمْ آمون".

لا شك أن التوراة لم تذكر هامان في معرض الحديث عن وقائع موسى وفرعون، ولكن الشواهد التاريخية قد دلّتنا على شخصية كانت تُعتبر في مصر ثاني شخصية كبيرة بعد فرعون، وكان هناك كتيبة عظيمة باسمه، وكان مشرفًا على أعمال بناء المعابد كلها. إذًا، فإذا كانت التوراة قد أهملت ذكر هذه الشخصية الكبيرة فهذا ليس دليلاً على وقوع القرآن الكريم في خطأ تاريخي، إنما هو دليل على أن التوراة هي التي قد ارتكبت خطأ تاريخيًا، مع أنها قد كُتبت في عهد موسى عليه السلام وتدّعي أنها تسرد وقائع عصره سردًا صحيحًا. أما القرآن الكريم الذي نـــزل بعد التوراة بألفي سنة فقد نبّه إلى خطئها متحديًا أن بيانه هو الصحيح، وأن ما ذكرته التوراة فهو خطأ، ومن أجل ذلك فقد أعلن القرآن الكريم في بداية هذه السورة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.. أي أن هذه آيات الكتاب الذي يبين الحقائق كلها

ويكشف الأسرار بأسرها. كما أعلن أيضًا: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.. أي أننا لا نكرر ما ورد في التوراة من قصص وأحداث، بل نسرد لك الوقائع الحقيقية من زمن موسى وفرعون، ولكن لن ينتفع منها إلا الذين يوقنون بها، أما الذين لا عمل لهم إلا الاعتراض فلن ينتفعوا منها. وبالفعل ترى أن سيل وويري لم ينتفعا من هذه الحقائق التي ذكرها القرآن الكريم، بل زعما أن محمدًا (ﷺ) قد ارتكب هنا خطأ تاريخيًا، إذ اعتبر هامان معاصرًا لموسى عليه السلام مع أنه كان وزيرًا لملك فارسي خلا قبل موسى بخمسة قرون. ولكن المصادر التاريخية قد أكدت أن اعتراضهما باطل وأن الحق مع القرآن الكريم.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

اليَمّ: هو البحر. (الأقرب)

فالتقطه: التقطه: عثَر عليه من غير قصد ولا طلب. (الأقرب)

التفسير: المراد من قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أن أم موسى ألقته في النهر كما أمرها الله تعالى، ولكن عين حمايته تعالى كانت تكلؤه، فلم يغرق بل أخذه شخص من عائلة فرعون. والمراد من قوله تعالى:

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أن موسى أصبح في نهاية المطاف عدوًا لهم وسبب لهم همًا وحزنًا حيث إن اللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ للعاقبة.

وقد صرح القرآن الكريم في سورة "طه" أن الله تعالى أمر أُمَّ موسى عليه السلام أن تضعه في التابوت ثم تضع التابوت في النهر، وليس أن تُلقيه في النهر هكذا، حيث ورد هناك: ﴿اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾(طه: ٤٠).

وإن التوراة أيضًا تسلّم بذلك إذ ورد فيها أن أمّ موسى صنعتْ سلّةً من البَرْدِيّ وطلَتْه بالحُمَر والزِّفْت، ووضعت فيه الولد، ووضعته بين الحَلْفاء على حافة النهر (الخروج ٢: ٣). وسلّة البَردي والتابوت شيء واحد في الحقيقة، إذ ليس ضروريًا أن يكون التابوت مصنوعًا من الخشب، بيد أنه كان ضروريًا أن يوضع موسى في شيء لا يتسرب إليه الماء، ولذلك تخبرنا التوراة أن أُمّه طلت السلّة بالحُمَر والزِّفت لتسدّ ثقوبها، فلم تعد بعد ذلك سلةً بل صارت شيئًا كالتابوت.

قال بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ أن آسية امرأة فرعون هي التي التقطت موسى من النهر، إذ ذهبت إلى النهر للغسل في ذلك اليوم، فرأت تابوتًا صغيرًا يطفو على الماء، فحملته وفتحته، فوجدت فيه ولدًا جميلاً، فأشفقت عليه وأخذته إلى البيت وقامت بتربيته (الطبري). ولكن التوراة تخبرنا أن ابنة فرعون هي التي كانت تغتسل في النهر، فرأت سلة بين الحَلْفَاء على حافة النهر، فبعثتْ بعض زميلاتها لتحمل السلة إليها، فلما فتحتها وجدت فيها ولدًا جميلاً، فأشفقت عليه وأخذت تربّيه. (الخروج ١: ١٦)

وبما أن القرآن الكريم قد صرح هنا ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾ مما يدل أن أحدًا من عائلة فرعون وقبيلته أخذه. فالمراد من ﴿آلُ فِرْعَوْنَ﴾ ابنته لا زوجته.

وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩

التفسير: لما أخذت ابنة فرعون الولدَ إلى البيت قالت زوجة فرعون له سيكون هذا الولد قرة عين لي ولك، فلا تقتله عسى أن ينفعنا كخادم أو يكون ذكيًا فنتخذه ولدًا. وكانوا لا يشعرون بما كان يخفيه لهم القدر وماذا سيحدث في المستقبل.

لا شك أن ابنة فرعون هي التي التقطت موسى من الماء وهي التي أخذته إلى البيت، ولكن لا تطرح أيُّ أمّ ولدها في النهر إلا إذا خافت على حياته خوفًا شديدًا. ولما كان بنو إسرائيل هم الذين يخافون على حياة مواليدهم لأن فرعون كان قد أمر القابلات بقتلهم (الخروج ١: ١٦)، فلما أخذت ابنته موسى إلى البيت أدرك أنه ولد إسرائيلي فأراد قتله، ولكن زوجته شفعت له وقالت لفرعون دَعِ البنت تفعل ما تشاء ولا تقتل الوليد من أجلي، عسى أن ينفعنا إذا كبر أو نتخذه ولدًا إذا كان ذكيًا. ولكن فرعون وأهله لم يعلموا ما كان القدر يخفيه لهم.

وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ

نَٰصِحُونَ ﴿١٣﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

فؤاد: الفؤاد: القلب لتوقُّده، لأنه من فَأَدَ اللحمَ في النار: شواه، وقيل لتحرُّكه لأن أصل الفَأَد الحركةُ. (الأقرب)

التفسير: لما تلقّتْ أمّ موسى عليها السلام هذا الوحي أدركت أن الله تعالى سيتولى حفظ ولدها ولن يقدر فرعون على قتله، فخلا قلبها من الهم وغمرها الفرح حتى كادت تبوح بهذا السر لولا أن جعل الله تعالى قلبها قويًا لتكون من المؤمنين.

يقول المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ أن أمه لم تبرح تفكّر فيه كل حين بعد طرحه في النهر (الرازي)، ولكن هذا المعنى باطل، وإنما المفهوم السليم هو أن الله تعالى لما بشّرها أن فرعون لن يضر موسى شيئًا زال حزنها واطمأن قلبها وغمرتها هذه البشارة فرحةً وسرورًا حتى كادت تخبر الناس أن الولد لها وأن الله تعالى قد وعدها بحمايته؛ ذلك لأن ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ قد يعود إلى موسى فيكون المعنى أن أمه كادت أن تبوح بالسر وتخبر الناس أن الولد لها، وقد يعود هذا الضمير إلى الوحي الذي تلقته فيكون المراد أنها كادت أن تبدي للناس بأنها قد تلقّت من الله وحيًا كذا وكذا، وألقت وليدها في اليم طبقًا لوحي الله تعالى. أما لو كانت أمه لا تزال تخاف عليه وتفكر فيه كل حين فما كانت لتبوح بهذا السر، إنما يمكن أن تفكر في البوح بسرّ ابنها إذا كانت فرحة ومطمئنة على حياته.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.. أي أن أمه أمرت أخته أن تتبعه في النهر وتراقبه عن بعد لا من قربٍ حتى لا ينتبه لها أحد من قوم فرعون.

أما قول الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ..الخ﴾.. فيعني أنهم لم يجدوا له مرضعًا ترضعه، أو يعني أن موسى عليه السلام رفض أن يرضع أيًا من المراضع. فتقدمت أخته وقالت لأهل فرعون هل أدلكم على أهل بيت يقومون لكم برضاعته ويكونون له ناصحين؟ وهكذا رجع الله بموسى إلى أمه كي تقر عينها ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الأمور لغبائهم.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

أَشُدَّه: بلَغ فلان أشُدَّه أي قُوّتَه، وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة. (الأقرب)

التفسير: أي لما بلغ موسى شبابه واستوى بقوة على الخُلق الأسمى وهبنا له الحُكم والعلم وكذلك نجزي المحسنين. لا شك أن الأشُدّ هو ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين، ولكن هذا لا يعني أن هناك عمرًا معينًا يبعث فيه أحد نبيًا، إذ يتضح لنا من دراسة التاريخ أن الأنبياء بُعثوا في سن متفاوتة، فقد بُعث النبي ﷺ مثلاً في سن الأربعين (البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ)، وبُعث عيسى عليه السلام وعمره ثلاثون سنة بحسب إجماع النصارى والمسلمين. (البداية والنهاية: بيان نزول الكتب الأربعة، لوقا ٣: ٢٣)، وبُعث يحيى عليه السلام وهو دون الثلاثين (الخازن: قوله تعالى: وآتيناه الحكم صبيًا). وعليه فيمكننا القول بناء على التاريخ أن الأنبياء يُبعثون في سن متفاوت وفقًا لأوضاع عصورهم، ولا يمكن تحديد بلوغ الأَشُدّ لغويًا ولا تاريخيًا.

وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾

وَكَزَه: دفَعه. ووَكَزَ فلانًا: ضرَبه بجمع الكفّ. وقال الكسائي: وكَزه: لكَمه. (الأقرب)

ظهيرًا: الظهير: المُعين. (الأقرب)

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا حادثًا هامًا من حياة موسى عليه السلام أدّى إلى بعثته نبيًا، وهو أنه دخل المدينة مرة على حين غفلة من الناس أي وقتَ الليل، فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من قومه والآخر من أعدائه. ويبدو أن هذا الشخص الأول كان يتكلم بالعبرانية فعلِم موسى أنه من قومه، فرأى مساعدته واجبًا عليه.

لقد قال الله تعالى هنا: ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ ولم يقل: "وهذا من أعدائه"، وذلك لأن لفظ ﴿عدوه﴾ إشارة إلى قوم فرعون، ووصفُ "القوم" بصيغة المفرد جائز في اللغة، فالمعنى أن الآخر كان من القوم الذي هو عدوّه.

فلما استغاثه الذي من قومه ضد الذي كان من قوم فرعون رأى موسى عليه السلام أنه إذا لم ينصر أخاه الإسرائيلي فإن الرجل سيقتله، فتقدم موسى ووجّه إلى الرجل لكمةً، فإما أنه لكَمه بقوة لأن الموقف كان حرجًا، أو أن الرجل كان ضعيف

القلب أو الكبد، فأصابت اللكمة قلبه أو كبده، فمات في مكانه. فقال موسى في نفسه: هذا من عمل الشيطان.. أي أن ما حدث إنما هو نتيجة الغضب، إذ إن الشيطان مشتق من شطن أو شاط، فيقال: "شاط الشيءُ: احترق، واستشاط الرجل غضبًا.. أي غضِب غضبًا شديدًا (الأقرب)؛ فثبت أن الشيطان هنا بمعنى الغضب.

أما قول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ فمعناه أن الغضب عدو كبير للإنسان حيث يُنسيه طريق الصواب، إذ يقال: "ضَلَّ الناسي: أي غاب عنه حفظُ الشيء" (الأقرب).

ففكر موسى عليه السلام أن فرعون وقومه سيعادونه الآن، فدعا ربه وقال ربّ، لقد ألقيت نفسي في العناء حين تقدمت لمساعدة رجل من قومي حين رأيته في محنة، فاستُرْ لي مصيبتي، علمًا أن الغفر يعني الستر سواء أكان ستر المصيبة أو ستر الذنب، فيقال: "غفَر الشيء غفرًا: ستَره" (الأقرب)، فقوله فاغفر لي يعني استُرْ مصيبتي. فستر الله مصيبته حيث لم يره أحد من مسؤولي الحكومة، ثم فشلت الحكومة حين أرادت قتله. ولا شك أن الله يستر عباده في مصائبهم ويرحمهم كثيرًا.

ثم دعا موسى وقال ربِّ قد منتَ عليّ كثيرًا فلن أنصر المجرمين بعد ذلك. والواقع أن الشخص الذي أغاثه موسى عليه السلام لم يبدُ مجرمًا بظاهره، وإنما اعتبره موسى مجرمًا بناءً على فراسته، إذ فكّر أنه قد أغاثه بحسن النية فقُتل رجل من قوم فرعون مما ألقاه في بلاء شديد؛ فيبدو أن هذا الشخص مجرم عند الله تعالى.

فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا

قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

يترقب: ترقَّبَه: انتظرَه (الأقرب). وترقَّبَ: احترزَ راقبًا. (المفردات)

يستصرخه: استصرخَه: استغاثه. (الأقرب)

التفسير: وفي الصباح خرج موسى عليه السلام إلى المدينة وهو يلتفت يمينًا وشمالاً ليرى ما إذا كان أحد يتتبّعه أم لا، فوجد أن الشخص الذي استغاثه بالأمس يناديه للمساعدة. وبما أن موسى عليه السلام كان قد أدرك بفراسته أن هذا الرجل من قومه كان على خطأ في شجاره مع الرجل الذي قُتل أمس، فقال في نفسه أنه شخص عصبي يُسخط الناس وإلا فلمَ يتشاجر الجميع معه، فقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾.. أي لا شك أنك مفسد. علمًا أن "الغويّ" صفة مشبهة باسم الفاعل من غوَى يغوي ومن معانيه المفسد. ثم رأى موسى عليه السلام أن الشخص الآخر يبدو معتديًا فهمّ أن يبطش به، فظنَّ الإسرائيلي أنه يريد ضربه إذ لامه من قبل، فصرخ على موسى بدون تفكير وقال أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ إنك لا تريد الإصلاح وإنما تريد أن تظلم الضعفاء وتتكبر في الأرض. علمًا أن الجبّار صفة من صفات الله تعالى وهو الذي يسدّ حاجات الناس، ولكن إذا وُصف بها غير الله تعالى فتعني كل عات متمرد لا يبالي بأي قانون وحدود (الأقرب). فعلِم الناس بصراخه أن موسى هو الذي قتل المصري البارحة. ولأن القتيل كان من قوم فرعون وكان المعتدي اليوم من قوم فرعون، فانتشر هذا الخبر في المدينة انتشار النار في الهشيم وثار قوم فرعون.

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ

ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

التفسير: فجاء رجل من الناحية الأخرى من المدينة فقال لموسى إن رؤساء القوم يأتمرون بقتلك فاهرب من هنا فورًا، فإني لك من الناصحين. فهرب موسى عليه السلام من المدينة فورًا وهو يلتفت يمينًا وشمالاً ليرى ما إذا كان أحد يطارده أم لا، وكان يدعو الله تعالى ربِّ إن قوم فرعون ظالمون معتدون، إذ رأيتُ بأم عيني مرتين أنهم حاولوا قتل إسرائيلي، فنَجِّني من هؤلاء الظالمين. ثم توجّهَ موسى إلى أرض مَدْيَن.

وكان مدين أحد أبناء إبراهيم عليه السلام من زوجته قطورة، وقد جاء ذكره في التوراة كالآتي:

"وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ فَأَخَذَ زَوْجَةً اسْمُهَا قَطُورَةُ، فَوَلَدَتْ لَهُ زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا." (التكوين ٢٥ :١-٢)

وكان الناس في القديم يُدعون بأسماء آبائهم، فدُعِيَ نسلُ مدين أيضًا باسمه. ثم إن هؤلاء القوم سمّوا عاصمتهم أيضًا مدين. وكانت هذه المدينة تقع قريبًا من البحر على خليج العقبة ناحية الجزيرة العربية – علمًا أن البحر الأحمر يصبح فرعين في الشمال: فرع في ناحية مصر وفرع في ناحية الجزيرة العربية، والفرع الذي يتاخم الجزيرة العربية يُدعى خليج العقبة – وكانت القوافل التجارية العربية تمر بمدين في طريقها إلى مصر. الواقع أن مدينة مدين قد اندرست الآن إلا أنه لا تزال هناك قرىً صغيرة حتى اليوم. (أطلس القرآن ص ٩٢-٩٣، وتاريخ أرض القرآن (أردو) المجلد الثاني ص ١١٠-١١١)

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٣﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً

مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٤ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٥ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٦

شرح الكلمات:

تذُودان: ذادَه يذود ذَودًا وذِيادًا: طرَده ودفَعه. (الأقرب)

خَطْبُكما: الخطب: الأمر العظيم الذي يكثُر فيه التخاطب. (المفردات)

يُصدِر: أصدر فلانًا: ذهب به. (الأقرب)

الرِّعاء: مفردُه الراعي، ومن معاني الراعي أيضًا: كلُّ من ولِي أمرَ قوم. (الأقرب)

التفسير: فكما أن يعقوب عليه السلام قال إني ﴿لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾(يوسف: ٩٥).. أي لو لم تتهموني بالجنون حيث لا أزال أذكر يوسف كل حين فإني أخبركم بأن لقائي بيوسف وشيك، فيبدو أن موسى عليه السلام أيضًا قد شمّ ريح السكينة والطمأنية لما توجه إلى مدين، قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.. أي حان أن يوصلني ربي إلى حيث قدَر لي الخير والبركة. فاستجاب الله دعاءه حيث إنه لما بلغ ماء مدين وجد عليه قومًا يسقون مواشيهم، ووجد من دونهم امرأتين تمنعان أغنامهما كيلا تختلط وتضيع بين مواشي القوم. فتقدم موسى

إليهما وقال: ﴿ما خَطْبُكما﴾.. أي ما الذي يهمّكما – علمًا أن من معاني الخطب: الشأن، وأيضًا الأمرُ صغر أو كبر (الأقرب) – فقالتا لا نسقي غنمنا إلا بعد أن يذهب هؤلاء الرعاة بمواشيهم لأنّا لا نريد الاختلاط بهم. ثم فكّرتا أنه شخص غريب وربما يُسيء بأهلهما الظن إذ أرسلوا بناتهم ولم يأتوا بأنفسهم ليسقوا مواشيهم، فقالتا إن أبانا هو الرجل الوحيد في أهلنا ولكنه شيخ كبير لا يقدر على القيام بهذا العمل. فأشفق موسى عليه السلام على البنتين فسقى لهما أغنامهما، ودون أن يفكر في أجرة أو شكر من قبلهما، ثم ذهب وجلس في ظل شجرة، ودعا ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنـزلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.. أي ربّ، إنني مسافر غريب وحيد في هذا البلد، ولا أملك شيئًا فإني محتاج إلى أي خير تؤتيني إياه. ولم يمض عليه وقت طويل حتى جاءت إليه إحدى البنتين في خجل وحياء وقالت: إن أبي يدعوك ليعطيك أجرَ ما سقيتَ لنا.

ثم يخبر الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.. لما جاء موسى أبا الفتاتين وقص عليه قصته كلها أثناء الحديث، طمأنَه الرجل وقال لا تخف الآن فقد نجوت من القوم الظالمين.

قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

حِجج: جمعُ حِجّة، والحِجّة السَنة. (الأقرب)

التفسير: حيث إن البنتين تذهبان إلى الماء يوميًا فيعاكسهما الرعاة الأوباش ويُسمعونهما كلامًا بذيئًا، فاقترحت إحداهن على أبيها أن يستأجر موسى لهذا العمل تخلَّصا من هذه المعاناة، وقالت: يا أبانا استأجِرْه لأن أفضل الأجراء من يكون قويًا وأمينًا. يبدو أن موسى عليه السلام لما سقى الغنم دفَع الرعاة بقوة وشجاعة فعلمت الفتاتان أنه قوي، ولما توجه إلى الظل غاضَّ البصر عن الفتاتين فأيقنتا أنه أمين، أما أبوهما فكان قد علم ذلك سلفًا عندما سمع منهما قصته؛ ولكنه كان لا يملك من المال إلا تلك المواشي، فلم يلبث أن اقترح على موسى عليه السلام أن يزوّجه إحدى ابنتيه شريطة أن يخدمه ثمانية أعوام، ثم قال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾.. أي أطلب منك الخدمة ثمانية أعوام ولن أُصر على أن تكمل عشر سنوات، أما إذا زدت على الثماني سنتين من عندك فتكون منة عظيمة منك عليّ، ولن أكون قاسيًا عليك بل ستجدني إن شاء الله حسنَ المعاملة. فقال موسى عليه السلام حسنٌ لقد تمت هذه المعاهدة بيني وبينك وأنا مخير في أن أقضي أيَّ الأجلين شئتُ، ولا تتوقع مني أن أكمل عشر سنين. وحيث إن هذه المعاملات بحاجة إلى الشهود فأُشهِدُ الله على ما قد تمّ بيني وبينك.

وبناءً على هذه الآيات أقول لمن يستشيرني في مقدار المَهر عند الزواج إن مقداره ما يكسبه المرء في ستة أشهر إلى سنة، وذلك لسببين: أوّلاهما أن سيدنا المسيح الموعود عليه السلام قد اشترط بأمر الله عز وجل على كل من يريد الانخراط في "نظام الوصية" أن يدفع عُشر دخله.. وهذا يعني أنه عليه السلام قد اعتبرها تضحية كبيرة، ولذلك أرى أن دفع المرء عُشر دخله مهرًا لزوجته – بالإضافة إلى ما عليه من نفقات شتى–

لتضحيةٌ كبيرة بحيث إن صاحب مثل هذه التضحية قد وُعد عليها بالجنة في نظام "الوصية"، ولذلك أرى أن ما يكسبه المرء في السنة – وهو عُشر ما سيكسبه في عشر سنوات – لمبلغٌ كاف كمهر لزوجته، بل أرى أنه أقصى حد للمهر. وثانيهما: أن هذه الآيات أيضًا تدعم موقفي كما بيّنتُ من قبل، إذ ورد فيها أن حما موسى عليه السلام قد طلب منه خدمة ثماني سنوات كمهر للزواج، أما أن يزيد عليها سنتين فهو مخير في ذلك، وهذا يعني أن الله تعالى قد اعتبر ثُمن دخل موسى بل عُشره أيضًا أقصى حد للتضحية؛ ذلك لأن من البديهي أن موسى عليه السلام كان لا يأكل ولا يشرب في هذه السنين الثماني أو العشر من ماله الخاص، بل كان حموه هو الذي ينفق عليه وعلى زوجته أيضًا، ونظرًا إلى هذه النفقات يمكن القول إن عُشر كل الأجرة التي قد استحقها موسى فعلاً كان يبقى عند حميه باعتباره مهرًا لابنته.

أما حمو موسى عليه السلام فتخبرنا التوراة في مكان أن اسمه "يثرون" (الخروج ٣: ١)، بينما يقول في مكان آخر إن اسمه "رَعُوئيل" (الخروج ٢: ١٨). أما القرآن الكريم فلم يذكر اسمه، بيد أن المفسرين قالوا أن حماه هو شعيب عليه السلام الذي بُعث إلى قوم مدين (ابن كثير). ولكنه خطأ عندي، إذ يتضح من القرآن الكريم أن موسى عليه السلام بُعث بعد هلاك قوم شعيب عليه السلام، حيث قال الله تعالى بعد ذكر هلاكهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾(الأعراف:١٠٤). فما دام القرآن قد صرح أن موسى بُعث بعد دمار قوم شعيب – عليهما السلام – فكيف يقال أن شعيبًا هو حمو موسى؟ ثم يورد القرآن الكريم في مكان آخر قول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾(هود:٩٠). ويتضح من هذا أنه بُعث بعد لوط – عليهما السلام – بزمن قريب. إذًا، فاعتبار شعيب معاصرًا وحمًا لموسى قول غير سليم بحسب هذه الآيات. وسواءً كان اسم حميه "يثرون" أو "رعوئيل" أو غيره إلا أنه كان شخصًا غير شعيب عليه السلام، إذ كان قوم شعيب قد هلكوا قبل

موسى بزمن طويل، و لم يبق في عصر موسى إلا آثار من ذريتهم، وكانوا قد فقدوا عزهم ومجدهم.

لقد أوضح القرآن الكريم في مستهل هذه السورة أن ما يذكره من وقائع موسى قبل بعثته ليس نقلاً لما ورد في التوراة، بل إنها هي الوقائع الصحيحة من حياة موسى عليه السلام، كما أوضح القرآن الكريم أنه لم يسردها كقصة فحسب، بل إن فيها آيات عظيمة لقوم مؤمنين.. أي على المؤمنين أن يوقنوا بأن الله تعالى كما نصر موسى وجعل بواسطته شعبه المستضعَف المقهور ملوكًا في الدنيا، كذلك فبرغم أن الذين آمنوا بمحمد ﷺ سيُضربون ويهانون كبني إسرائيل، وسيضحون بأنفسهم وأموالهم وأجيالهم في سبيل الله تعالى، إلا أنه تعالى سيعاقب الملوك الجبابرة – مثل فرعون – الذين لا ينصاعون لأحكامه تعالى، ويمزق ملكهم كل ممزق كما مزّق مُلك فرعون من قبل وجعل بني إسرائيل وارثين للنعم التي كان يتمتع بها هو وقومه. والحق أن كل صفحة من تاريخ الإسلام شاهدة على صدق هذه النبوءة وتمثّل دليلاً بينًا على صدق النبي ﷺ.

ثمة اختلافات بين ما ورد في القرآن الكريم و التوراة حول هذه الأحداث، وإليك بيانها:

الأول: لم تذكر التوراة أن الله تعالى هو الذي أمر أمّ موسى عليه السلام بالوحي بأن تطرحه في النهر إذا خافت على حياته، بل تقول التوراة أن أمه اتخذت هذا التدبير من عند نفسها، بينما يبين القرآن الكريم أن فكرة إلقائه في النهر لم تخطر ببالها من تلقائها، بل إن الله تعالى هو الذي أمرها بذلك بوحيه. والحق أنه لو كان هذا التصرف فعلاً شخصيًا لأم موسى و لم يكن مصحوبًا بتأييد الله ونصرته لما تبعتْه الأحداث التي تتعلق بتربيته في القصر الملكي. فهذه الأحداث دليل على أن كل ما حدث قد تمّ بحسب مشيئة الله وتدبيره.

والثاني: تقول التوراة إن أمّ موسى "أخذت له سَفَطًا من البَرْدِيِّ وطلتْه بالحُمَر والزِّفت، ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحَلْفاء على حافة النهر" (الخروج ٢: ٣).

وهذا يعني أن أمّه لم تجرؤ، بحسب التوراة، على إلقائه بيدها في ماء النهر ليأخذه الماء، بل غاية ما فعلته أنها خبّأته بين الحَلْفاء على حافة النهر. ثم تذكر التوراة أن ابنة فرعون ذهبت للاغتسال على النهر فرأت سلّة بين الحَلْفاء، فأرسلت صديقاتها ليأتين بها، حيث ورد:

"فنـــزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل، وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر. فرأت السفط بين الحلفاء، فأرسلتْ أَمَتَها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي. فرقّت له وقالت: هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لابنة فرعون: هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد. فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون: اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطيك أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبُر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون، فصار لها ابنًا ودعتْ اسمه موسى، وقالت: إني انتشلتُه من الماء." (الخروج ٢: ٥-١٠)

ولكن الغريب أن التوراة تقول من جهة أن أمّ موسى خبأته بين الحلفاء وأن ابنة فرعون أخذته من بين الحلفاء، ومن جهة أخرى تقول أن بنت فرعون سمّتْه موسى حيث بيّنْت سبب تسميته بأنها انتشلته من الماء. فما دامت أمّ موسى عليه السلام لم تُلْقِه في الماء بل خبّأته بين الحلفاء على حافة النهر، وحيث إن ابنة فرعون لم تنتشله من الماء بل أخذته من بين الحلفاء، فكيف ادعت أنها سمّتْه موسى لأنها انتشلته من الماء؟ فثبت أن أمّه لم تلقه في ماء النهر أصلاً بحسب التوراة، بينما يعلن القرآن الكريم أن أمه لم تخبئه بين الحلفاء بل وضعته في التابوت وألقته في ماء النهر فجرى به.

الثالث: تتهم التوراة موسى عليه السلام بقتل المصري عمدًا ثم إخفائه في الرمال حيث ورد:

"وحدث في تلك الأيام لما كبُر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر في أثقالهم. فرأى رجلاً مصريًا يضرب رجلاً عبرانيًا من إخوته. فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحدٌ، فقتَل المصريَّ وطمَره في الرمل. ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان

عبرانيان يتخاصمان، فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبك؟ فقال: مَن جعلك رئيسًا وقاضيًا علينا؟ أمفتكرٌ أنت بقتلي كما قتلتَ المصري؟ فخاف موسى وقال: حقًّا قد عُرف الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر، فطلب أن يقتل موسى. فهرب موسى من وجه فرعون، وسكن في أرض مِدْيان." (الخروج ٢: ١١-١٥)

وهنا أيضًا نجد اختلافًا في بيان القرآن الكريم وبيان التوراة، وكل عاقل إذا تدبر الأمر وجد أن بيان القرآن الكريم هو الأقرب إلى المنطق والصواب. فمثلاً تزعم التوراة أن موسى عليه السلام لما رأى فردًا من قومه يتشاجر مع المصري التفت يمينًا وشمالاً ليطمئن بعدم وجود شرطي هناك، ثم تقدَّم وقتل المصري وأخفاه في الرمال. وهذا يعني أن التوراة تتهم موسى بالقتل عمدًا، حيث كان ينوي قتل المصري عن عمدٍ مع سبق الإصرار والترصد ولذلك نظر يمينًا وشمالاً، وحين اطمأن أنه لا يراه أحدٌ قتَله وأخفاه في الرمال، ولكن القرآن الكريم يعلن أن موسى عليه السلام لم يتقدم لمساعدة العبراني لما رآه يتقاتل مع المصري بل العبراني نفسه استنجد به، فتقدم لمساعدته بدون أن يلتفت يمينًا وشمالاً، ولكَم المصري بدون أي إرادة لقتله، ولكن اللكمة، لسوء الحظ، أصابت المصري في مكان حساس فمات. فالقرآن الكريم يُبرئ ساحة موسى عليه السلام من القتل العمد، ولكن التوراة تعتبر موسى نبيًا من جهة، ومن جهة أخرى تتهمه بكل جسارة بقتل المصري عمدًا.

ثم إن القرآن الكريم يختلف مع التوراة في حادث اليوم التالي ويعلن أن نفس العبراني كان يتشاجر مع مصري آخر، ولكن التوراة تقول أن الشجار كان بين اثنين من العبرانيين هذه المرة. والواقع أن الخصام لو كان بين عبرانيين فما كان لموسى أن يتدخل بينهما، إن تدخله يؤكد أن هذا الشجار أصبح قضية قومية دفعته للتدخل.

ثم تقول التوراة: "فقال للمذنب: لماذا تضرب صاحبَك."

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إذا كان المتخاصمان كلاهما من قوم موسى عليه السلام فكيف عرف موسى المذنبَ منهما، ولأي سبب أخذ يعنّفه؟ فثبت من ذلك أن التوراة قد أخطأت في قولها أن المتخاصمين هذه المرة كانا عبرانيين، بل الحق ما

ذكره القرآن الكريم؛ أي أن أحدهما كان مصريًا والآخر عبرانيًا. وحيث إن التوراة قد أصبحت عرضة للتحريف بأيدي البشر فقالت أن الشجار وقع بين اثنين من العبرانيين.

ثم إن العهد الجديد أيضًا لم يذكر الحادث الحقيقي بل اعتبر موسى مجرمًا، إذ ورد فيه:

"وفي اليوم الثاني ظهر لهم وهم يتخاصمون، فساقهم إلى السلامة قائلاً: أيها الرجال أنتم إخوة لماذا تظلمون بعضكم بعضًا؟ فالذي كان يظلم قريبَه دفَعه قائلاً: مَن أقامك رئيسًا وقاضيًا علينا؟ أتريد أن تقتلني كما قتلتَ المصريَّ بالأمس؟ فهرب موسى بسبب هذه الكلمة، وصار غريبًا في أرض مَدْيان حيث ولَد ابنَينِ." (أعمال الرسل ٧: ٢٦ – ٢٩)

ولكن هذا خطأ كما أسلفت، والواقع أن أحد المتخاصمين في اليوم التالي كان مصريًا والآخر عبرانيًا، والمتشاجر العبراني هذه المرة أيضًا كان نفس الذي كان البارحة، ولذلك قال لموسى: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ لو كان عبرانيًا آخر فكيف علِم، يا ترى، بما حصل بالأمس وأن موسى هو قاتلُ المصريِّ؟ الحق أن هذه الكلمات من العهد القديم والجديد نفسها تمثّل شهادة داخلية منهما على أن المتخاصم العبراني في الصباح لم يكن شخصًا جديدًا، بل كان نفس العبراني الذي كان يتخاصم بالأمس.

فمن المستغرب أيضًا أن الكتاب المقدس يقول من جهة أن موسى خبّأ القتيل المصري في الرمال.. أي أن أمر قتله ظلّ سرًّا مكتومًا، ولكنه يعود فيقول أن عبرانيًا آخر قال لموسى في الصباح أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس؟ أي أن الحادث كان قد أصبح مشهورًا بين القوم. مع أن القتيل إذا كان قد دُفن في الرمال دون أن يراه أحد فلا يمكن أن يعلم قاتلَه إلا شخص واحد وهو العبراني المتشاجر البارحة. فثبت أن هذه الجملة لا يمكن أن يتفوه بها أحد إلا الذي شهد حادث القتل بالأمس، خصوصًا وأن الكتاب المقدس يخبر أن القتيل كان قد خُبّئ في الرمال و لم يعلم أحد بما حدث معه.

والرابع: تقول التوراة أن موسى عليه السلام لما هرب ووصل إلى مدين:

"جلس عند البئر، وكان لكاهن مِدْيان سبعُ بنات، فأتين واستقين وملأن الأجرانَ ليسقين غنم أبيهن. فأتى الرعاة وطردوهن، فنهضَ موسى وأنجدهن وسقى غنمهن." (الخروج ٢: ١٥ – ١٧)

وهنا عدة أمور جديرة بالانتباه وهي:

أ: تقول التوراة أن سبعة بنات لكاهن مديان جئن إلى البئر، بينما يقول القرآن الكريم إن ابنتين جاءتا إلى البئر لسقي الغنم. ذلك لأن القرآن الكريم اكتفى بذكر الكبيرتين منهن إذ كان أمر الزواج سيُناقَش فيما بعد، بينما ذكرت التوراة بناته كلهن الصغيرات منهن والكبيرات.

ب: يخبرنا القرآن الكريم أن الابنتين لم تتقدما لسقي غنمهما خجلاً وحياءً من الرعاة، بل دفعتا غنمهما عن البئر حتى يفرغ الرعاة ويذهبوا. ولكن الكتاب المقدس يخبر أن البنات كن يسقين، فجاء الرعاة ومنعوهن، مع أنهن لو كنّ قد وصلن إلى البئر وكنَّ يسقين قبلهم، فلا يُعقل أن يمنعوهن.

ج: يبدو من بيان الكتاب المقدس أن الرعاة حين طردوا البنات تقدم موسى عليه السلام وساعدهن، وهذا يعني أنه تشاجر معهم، ولكن القرآن الكريم يخبر أن موسى عليه السلام لم يتشاجر مع الرعاة، بل انحصرت مساعدته للبنتين في أنه أخذ غنمهما وسقاها. والعقل أيضًا يؤيد بيان القرآن الكريم إذ كان موسى عليه السلام غريبًا عديم الحيلة لا نصير له ولا معين هناك، فكيف يمكن أن يدفع نفسه إلى الشجار والقتال؟ إنما قام بمساعدة البنتين وسقي غنمهما بعاطفة الخدمة والشفقة فقط.

ثم يخبر الكتاب المقدس أن البنات لما حكين القصة لأبيهن قال لهن: "لماذا تركتن الرجل؟ ادعونه ليأكل طعامًا" (الخروج ٢: ٢٠)، ولكنه لا يخبر عن عدد البنات اللواتي ذهبن لدعوة موسى عليه السلام. بينما يخبر القرآن الكريم أن بنتًا واحدةً فقط ذهبت إلى موسى في خجل وحياء وبلّغته رسالة أبيها.

ثم إن الكتاب المقدس لا يتحدث عن المعاهدة التي أُبرمت بين موسى عليه السلام وحميه، وإنما اكتفى بقوله: "فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل" (الخروج ٢: ٢١)، مع أنه كان لزامًا عليه أن يذكر أن حما موسى رضي بإسكانه عنده، أما بالنسبة إلى موسى فإن موافقته على الإقامة مسألة بديهية؛ إذ كان يبحث عن ذلك. أما القرآن الكريم فيخبر صراحة عن عقد معاهدة بينهما وأن موسى رضي بخدمة حميه ثماني سنين أو عشرا.

وبرغم أن الكتاب المقدس لا يذكر شيئًا عن هذه المعاهدة إلا أنه يعترف "أما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مِدْيان" (الخروج ٣: ١)، وهذا يؤكد أن موسى عليه السلام كان يعمل عند حميه بحسب المعاهدة التي ذكرها القرآن الكريم.

إذًا، فمن فضائل القرآن الكريم أنه قد قام بسرد الوقائع الصحيحة من حياة موسى عليه السلام رغم نـــزوله بعده بألفي سنة، أما التوراة فرغم أنها تُدعى كتاب موسى إلا أنها أهملت ذكر عدة أحداث هامة، كما أخطأت في بيان وقائع أخرى، ولذلك قد صرح القرآن الكريم في مستهل هذه السورة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.. أي أنها آيات الكتاب الذي يبين كل أمر ضروري.. أي مما لا شك فيه أن التوراة أيضًا كتاب، ولكنها أصبحت غير صالحة للانتفاع منها إذ قد تعرضت للعبث والتحريف على أيدي البشر، إنما الكتاب المبين الذي يكشف الأسرار المكتومة كلها ويذكر الأحكام الضرورية كلها مقرونةً بأدلتها فإنما هو القرآن الكريم فقط، وهو الكتاب الوحيد الذي إذا اتبعه البشر نالوا النجاة.

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا

نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ
ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣١﴾ وَأَنۡ
أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ
يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣٢﴾ ٱسۡلُكۡ
يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ
جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ
فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٤﴾ وَأَخِي
هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ
إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٥﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ
وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ
ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

آنس: آنسَ الشيءَ: أبصرَه؛ وآنسَ الصوتَ: سمِعه وأحسّ به. (الأقرب)

جذوة: الجذوة: الجمرة الملتهبة. (الأقرب)

تصطلون: اصطلى بالنار اصطلاءً: استدفأَ بها. (الأقرب)

شاطئ: شاطئ الوادي: جانبُه. (المفردات)

تهتزُّ: اهتزّت الإبلُ: تحركت في سيرها؛ واهتزّ الماء في جريانه: تطلَّقَ. (الأقرب)

جانٌّ: اسمُ فاعل مِن جَنَّ؛ واسمُ جمع للجنّ؛ وحيّةٌ بيضاء كحلاء العين لا تؤذي. (الأقرب)

رِدْءًا: الرِّدء: العون؛ الناصر. (الأقرب)

التفسير: اعلم أن قول الله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ لا يعني أن الشجرة صاحت قائلة: إنني أنا الله رب العالمين، بل المراد أن الله تعالى أوحى عندها إلى موسى فكان يسمع صوت الوحي كأنه منطلق من الشجرة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فالمراد من الجناح بنو إسرائيل، والمعنى أن ابتعادهم عن نفسك يا موسى سيكون مدمرًا، فعليك أن تضمهم إلى نفسك دائمًا وتقوم بتربيتهم جيدًا حتى لا يغفلوا عن الدين.

وهنا أيضًا نجد بعض الاختلافات بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم، وإليك بيانها:

أولاً: يقول الكتاب المقدس أن موسى عليه السلام خرج ذات يوم بغنم حميه أثناء إقامته في مدين ووصل إلى جبل حُوريب، "وظهر له ملاك الرب بلهيب نارٍ من وسط عُلَّيقة" (الخروج ٣: ١-٢)، فأمره الله تعالى هناك بالذهاب إلى فرعون. ثم ورد في الكتاب المقدس نفسه أن موسى عليه السلام "رجع إلى يثرون حميه وقال له أنا أذهب وأرجع إلى إخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعدُ أحياء. فقال يثرون لموسى: اذهب بسلام. وقال الرب لموسى في مديان: اذهب ارجعْ إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك. فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير، ورجع إلى أرض مصر" (الخروج ٤: ١٨-٢٠).

ولكن القرآن الكريم يخبر أن موسى عليه السلام لم يذهب إلى الجبل لرعي الغنم، بل مر بالجبل وهو مسافر مع أهله إلى جهة ما بعد قضاء سنوات خدمته عند حميه، فأوحى الله إليه عندها وجعله رسولاً وأمره بالذهاب إلى فرعون.

ثانيًا: يقول الكتاب المقدس أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بأن يذهب إلى فرعون رفض الذهاب إليه مرارًا حيث ورد "فقال موسى لله: مَن أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أُخرج بني إسرائيل من مصر" (الخروج ٣: ١١)، بل قال أيضًا "استمعْ أيها السيد، أرسلْ بيَدِ مَن تُرسل" (الخروج ٤: ١٣). وتخبر التوراة أن موسى عليه السلام لما رفض مرارًا وتكرارًا "فحمي غضب الرب على موسى." (الخروج ٤: ١٤)

وهذا يعني أن التوراة تعلن أن موسى عليه السلام أصبح – والعياذ بالله – أول هدف لغضب الله الذي لا ينـــزل إلا على أعدائه وأعداء رسله، ولكن القرآن الكريم يبرئ ساحة موسى عليه السلام من هذه التهم معلنًا أن الله تعالى قال له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾.. أي يا موسى لا خطر عليك، بل أنت من الذين يشملهم السلام من عند الله تعالى. ثم إنه تعالى لم يعد موسى وهارون بغلبتهما فحسب، بل بشّرهما بغلبة المؤمنين بهما أيضًا. وباختصار إن الكتاب المقدس يعتبر موسى عليه السلام عرضةً لسخط الله وغضبه، ولكن القرآن الكريم يعلن أنه كان موردًا لنعم الله وبركاته.

ثالثًا: تقول التوراة "ثم قال له الرب أيضًا أدخِلْ يدك في عُبّك. فأدخلَ يده في عُبّه ثم أخرجها، وإذا يده برصاءُ مثل الثلج." (الخروج ٤: ٦)

ولكن القرآن الكريم يخبر أن الله تعالى قال لموسى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.. أي ستبدو يدك بيضاء نورانية كآية من الله تعالى، وليس بسبب مرض الجذام كما تزعم التوراة.

رابعًا: تقول التوراة أنه لما حمي غضب الله على موسى قال له: "أليس هارونُ اللاويُّ أخاك؟ أنا أعلم أنه هو يتكلم. وأيضًا ها هو خارجٌ لاستقبالك. فحينما يراك يفرح بقلبه. فتكلِّمه وتضع الكلمات في فمه. وأنا أكون مع فمك ومع فمه،

وأعلّمكما ماذا تصنعان. وهو يكلّم الشعبَ عنك، وهو يكون لك فمًا، وأنت تكون له إلهًا." (الخروج ٤: ١٤- ١٦)

لقد ثبت من هذه العبارة أن الله تعالى إنما بعث هارون رسولاً مع موسى إظهارًا لغضبه عليه، ولكن القرآن الكريم يدحض هذا الزعم ويوضح أن موسى عليه السلام نفسه توسل إلى الله تعالى أن يبعث هارون ليؤازره وينصره، حيث ورد في القرآن الكريم قول موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾، فاستجاب الله دعاءه وبعث معه هارون نبيًا. إذًا، فإن القرآن الكريم يعتبر بعثة هارون نبيًّا مع موسى نتيجةً لدعائه ومنّةً إلهية عليه، ولكن التوراة تزعم أن الله تعالى غضب على موسى فأمره أن يأخذ معه هارون أيضًا.

خامسًا: تقول التوراة أن الله تعالى اعتبر هارون أخًا لموسى كونه من قبيلة بني لاوي فقط، وليس لأنه كان شقيقًا له أو أخًا من أمّه، ولكن القرآن الكريم يعتبر هارون شقيقًا لموسى أو أخًا من أمه على الأقل، حيث أخبر الله تعالى أن هارون قال لموسى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾(طه:٩٥).. علمًا أن كلمة ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ أصلها: يَا ابْنَ أُمِّي.

إذًا، فإن ما أعلنه الله تعالى في مستهل هذه السورة بقوله: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قد تجلى صدقه تمامًا من خلال الاختلاف الموجود بين القرآن الكريم والتوراة حول هذه الوقائع.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

التفسير: أي لما جاء موسى فرعونَ وملأه بآياتنا البينات اعتبروها سحرًا عوضًا عن أن ينتفعوا منها. علمًا أن السحر يطلق في اللغة على "كلّ ما دقَّ ولطُف مأخذُه، وعلى إخراج الباطل في صورة الحق، وعلى الغش والخداع، يقال سحره: خدَعه (الأقرب). فالمراد من قول فرعون: ﴿مَا هَذَا إِلا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ أن ما يقول لكم موسى إنما هو خداع عظيم، أو أنه باطل يُقدَّم في صورة الحق، أو أنه مكر يمكره لإغوائكم.

ولما كان من الوارد أن يتساءل القوم: من أين تعلم موسى هذا المكر، فقال فرعون: ﴿سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾.. أي قد اختلق موسى هذا السحر من عنده، فادعاؤه أن هذه آيات من عند الله مجرد فرية اختلقها ليضل الناس عن دينهم.

ثم استعمل فرعون سلاحًا آخر لإثارة القوم ضد موسى فقال: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾.. أي لقد كان آباؤنا أذكياء وحكماء ولكن هذا يظن أنه أذكى من آبائنا الذين ضربوا أروع الأمثلة لحكمتهم وذكائهم، ويريد أن يوجهنا إلى طريق غير طريق أسلافنا، وإذا كان ما يدعونا إليه حقًا لعُدَّ آباؤنا أغبياء جهلاء إذ لم يستطيعوا أن يروا النور الذي رآه موسى. وقد استعمل فرعون لإثارة الناس ضد موسى نفس السلاح الذي لم يزل أعداء الحق على مر العصور يستعملونه لإثارة القوم ضد أنبيائهم.

وانظر إلى روعة جواب موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.. لقد اتهمتموني بالافتراء على الله تعالى، مع أنه حري بكم أن تفكروا بأني أدعي مرة بعد أخرى بأني من عند الله تعالى، أفليس الله بكاف أن يُعاقبني على افترائي؟ ترون أن الحكومات الدنيوية أيضًا لا تسكت على الافتراء والتزوير، فمثلاً إذا خدع أحد الناسَ بادعائه زورًا بأنه موظف حكومي ألقت الحكومة القبض عليه وزجّته في السجن، فكيف يمكن أن يتركني الله تعالى بدون عقاب وهو يعلم أنني أفتري عليه؟ كلا، بل إن الله أعلم بمن جاء بالهدى من عنده وهو الأعلم من يكون له الفتح والغلبة في نهاية

المطاف. فاتركوا أمري في يد الله ليحكم بنفسه ولا تتهموني بالكذب والافتراء عليه تعالى، فلو كنت مفتريًا عليه فسيقطع بيده عنقي فأرى مصيرًا كمصير جميع المفترين في العصور كلها. أما إذا كنت من عند الله تعالى الذي قد بشرني بالنجاح والغلبة، فيمكن أن تقدروا زخم الجريمة التي ترتكبونها باتهامي بالافتراء..

والحق أن ما قاله موسى عليه السلام هنا يماثل ما قاله المسيح الموعود عليه السلام مخاطبًا المعارضين حيث كتب ما تعريبه:

"الدنيا لا تعرفني، ولكن الذي بعثني يعرفني. إنه لخطؤهم الفاحش وشقاوتهم الشديدة أنهم يريدون إبادتي. إنني ذلك الغراس الذي غرسه المالك الحقيقي بيده. فمن يريد قطعي فإنما يريد أن ينال نصيبًا من مصير قارون ويهوذا الأسخريوطي وأبي جهل." (ضميمة تحفة جولروية (أردو)، الخزائن الروحانية ج ١٧ ص ٣٩٩-٤٠٠)

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.. أي أن الدليل على صدقي أن الله تعالى سيكتب لي النجاح والغلبة، وأما أنتم فسيحل بكم العذاب من جراء الظلم الذي ارتكبتموه باتهامي بأني أفتري على الله تعالى.

ويراد بلفظ ﴿الظالمون﴾ من يفتري على الله تعالى، كما يراد به أيضًا من يُكذِّب المدعي الصادق المبعوث من عند الله تعالى، حيث قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾(العنكبوت:٦٩).. أي أن أظلم الناس شخصان: أحدهما من يفتري على الله تعالى، وثانيهما من يُكذِّب النبي الصادق. إذًا، فإن موسى عليه السلام قد حذر فرعون بقوله : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي إذا كان الافتراء جريمةً لا تُغتفر، فإن تكذيب المدعي الصادق أيضًا ظلم عظيم، فلا تفرحوا بكيل السباب والشتائم لي، بل فكِّروا في مصيركم، فلربما قد أصبحتم بتكذيب نبي صادق من الظالمين.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

شرح الكلمات:

صرحًا: الصرح: القصرُ؛ وكلُّ بناء عال. (الأقرب)

التفسير: وحيث إن موسى عليه السلام كان يقدم لفرعون وجود الله تعالى دليلاً على صدقه، ويقول له مرة بعد أخرى إن ربه يعلم أنه من عنده وأنه يبشره بحسن العاقبة والنجاح، كما أن آيات الله وتأييداته شاهدة على صدقه، فتوجَّه فرعون إلى حاشيته وقال لا أرى لكم إلهًا غيري، فلا أدري من هذا الإله الذي يتحدث عنه موسى مرة بعد أخرى. ثم دعا فرعون من فورة حماسه وقال لهامان اعمَل اللِّبن وابنِ مبنى عاليًا لأصعده: ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾. ثم قال: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.. أي لا يظنن أحدكم أني قد أمرت ببناء صرح عالٍ مقتنعًا بوجود إله يذكره موسى، إنما أريد أن أكشف للناس زيف ادعائه حيث ترى الدنيا أني قد بنيت هذا الصرح الشامخ وصعدت عليه لأرى هل هناك من أثر لإله يذكره موسى، ولكني لم أر شيئًا.

الواقع أن الشعوب القديمة كان لديها اعتقاد راسخ أن الأرواح السماوية تنـــزل على الأبراج العالية، بل كانوا يتصورون أن الله نفسه ينـــزل عليها، والدليل على ذلك ما ورد في الكتاب المقدس كالآتي:

"وكانت الأرض كلُّها لسانًا واحدًا ولغةً واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقًا أنهم وجدوا بقعة في أرض شِنْعَار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض: هلمّ نصنعْ لِبنًا ونشويه شيًّا. فكان لهم اللِّبْن مكانَ الحجر وكان لهم الحُمَر مكان الطين، وقالوا: هلم نبني لأنفسنا مدينةً وبرجًا رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسمًا لِئَلاَّ نتبدد على وجه كل الأرض. فنـــزل الرب لينظر المدينةَ والبرج اللذين كانا بنو آدم يبنونهما." (التكوين ١١: ١-٥).

إذًا، إن نـــزول الله تعالى على الأبراج العالية اعتقاد قديم، فأمر فرعون ببناء قصرٍ عالٍ ليثبت للناس كذب موسى ويقول أيها القوم هل هناك دليل أكبر على كذبه من هذا؟ فإني بنيت قصرًا شامخًا ومع ذلك لم ينـــزل عليه إلهه؟!

باختصار إن فرعون وجنوده أيضًا تكبَّروا وتجبَّروا بدلاً من أن يؤمنوا بما أتاهم به موسى من الهدى والتعليم، وظنوا أنهم لن يحضروا عند الله تعالى للحساب، ولكنا أخذناه مع جنوده في نهاية المطاف عقابًا على بغيهم وتمردهم. فالذي كان يحلم أن يرانا على قمة برج شامخ أريناه تجلِّينا في قعر البحر، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين. لقد سبق أن حذرهم موسى من هذا المصير حين قال: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾، ولكنهم لم يأبهوا بإنذاره مغرورين بقوتهم ومُلكهم، وقالوا من ذا الذي يستطيع أن يضرنا ويهلكنا؟ ولكن وقع المحذور الذي أنذرهم منه موسى، فأصبح موسى من الناجحين، بينما رأى فرعون بأم عينيه مصيره التعيس.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

المقبوحين: قبَحه الله عن الخير قَبْحًا: نحّاه عنه. (الأقرب)

التفسير: أي أننا جعلنا هؤلاء القوم زعماء لقومهم وهداة لهم، ولكنهم أخذوا يدعونهم إلى الدمار، فحُرموا من نصرة الله في الدنيا، ولن يكون لهم نصير ولا معين يوم القيامة أيضًا. لقد ساقوا قومهم إلى الدمار في الدنيا فلعنّاهم في الدنيا، أما في يوم القيامة فسيكونون من البائسين. وبالفعل ترى أنه برغم انقضاء أكثر من ثلاثة آلاف سنة على زمن موسى لا يزال الناس يصلّون عليه عليه السلام، وسيظلون كذلك إلى يوم القيامة. أما فرعون فكل شعب في الدنيا يلعنه، وستنـــزل عليه اللعنة يوم القيامة أيضًا.

الواقع أن الله تعالى إذا لعن قومًا في زمن فلا تتوقف اللعنة عندها بل تستمر. ومثاله أن النبي ﷺ خرج في إحدى الغزوات ونـــزل في طريقه بديار أصحاب الحِجر بعض الوقت، فأخرج الصحابة الدقيق وأخذوا يعجنونه ليعدّوا الطعام، فلما رآهم النبي عليه السلام أصابه القلق، فأمرهم أن يطرحوا العجين ويخرجوا من ذلك المكان لأنه مكان قد حل به غضب الله تعالى على قوم (البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: وإلى ثمود أخاهم صالحًا). فترى أن أصحاب الحِجر الذين غضب الله عليهم قد ماتوا وبادوا، وكانت مدينتهم المغضوب عليها قد خربت واندرست منذ أحقاب وقرون، ولكن الرسول ﷺ رأى أن عذاب الله تعالى لا يزال ينـــزل عليها، فلم يأمر أصحابه بالرحيل من ديارهم فحسب، بل أمرهم ألا يأخذوا معهم مالهم؛

أعني العجين الذي أعدّوه للخبز، وقال لا يحل لكم أكل العجين الذين أعددتموه بماء هذا المكان.

أتذكر حادثًا مماثلا وقع مع الخليفة الأول ﵁، وبيانه أن حضرته كان يحب عبد الحكيم البتيالوي كثيرًا قبل ارتداده عن الأحمدية، وكان هو الآخر يُكنّ لحضرته حبًا جمًا حتى إنه كتب إلى المسيح الموعود ﵇ عندما ارتد وبدأ في المعارضة: ليس في جماعتك إلا المولوي نور الدين الذي هو نموذج للصحابة، ولا ريب أنه مفخرة لهذه الجماعة. وكان هذا الرجل قد قام بتفسير القرآن أيضًا وكتب معظمه مستعينًا بالخليفة الأول ﵁، ولكنه لما أعلن ارتداده رأيت أنا بأمّ عيني أن الخليفة الأول أصيب بذعر شديد، فدعا بعض تلاميذه وأمره بإخراج تفسير عبد الحكيم من مكتبته كي لا ينـــزل عليه أيضًا سخط الله تعالى بسبب وجود تفسيره عنده. فبرغم أن الكتاب هو تفسير القرآن الكريم وقد كتب الرجل معظمه بمساعدة الخليفة الأول ﵁، إلا أن حضرته ﵁ أمر بإخراج تفسيره من مكتبته، لأن الرجل صار موردًا لغضب الله تعالى.

كذلك حصل بفرعون الذي كان يعتبر نفسه إله المصريين، وكان يقول في زهوه وغروره: "لا أدري ما هذا الإله الذي يدعو إليه موسى"، فلا تزال لعنة الله تعالى تنـــزل عليه حتى اليوم رغم مرور ثلاثة آلاف سنة، فكل من يذكر اسمه أو يرى مومياءه المحفوظة في القاهرة كآية من الله تعالى، لا تتولد في قلبه مشاعر الاحترام تجاهه، بل يكرهه ويحتقره.

لقد ذكر الله تعالى هذه الوقائع أمام أهل مكة ليبين لهم أن فرعون كما حارب موسى كذلك يحرض أبو جهل أهل مكة على محمد ﷺ، ولكن عليهم أن يتذكروا أن كل من ينبري لحرب محمد ﷺ سيُدمر وستلعنه الأجيال إلى يوم القيامة كما هلك فرعون مع جنوده ولا تزال الدنيا تلعنه حتى اليوم. وبالفعل ترى أن الناس يلعنون إلى اليوم أبا جهل وغيره من رؤساء مكة الذين آذوا النبي ﷺ أذى شديدًا، بل إن ذرياتهم لا تريد الانتماء إليهم خوفًا من الفضيحة، أما محمد ﷺ فيثني عليه

الناس ويحمدونه في كل مكان في العالم، إذ لا يوجد قطر ولا بلد في الدنيا إلا ويوجد فيه قوم يصلّون ويسلّمون على محمد ﷺ ويَفدُونه بمُهَجِهم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٦﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

ثاويًا: الثواء: الإقامةُ مع الاستقرار (المفردات). وثوى بالمكان: أقام. (الأقرب)

التفسير: أي بعد هلاك الأمم الأولى كانت الدنيا بحاجة إلى شريعة جديدة وكانت محرومة من جميع أسباب الخير والبركة، فأنـــزلنا على موسى كتابًا يهب للناس بصيرة روحانية وهداية ورحمة، وقد أُعطوه لكي يحدثوا في أنفسهم انقلابًا طيبًا متعظين بهديه ومستنيرين بنوره.

لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أن الغاية من نـــزول التوراة لم تنحصر في أن ينتفع الناس من تعاليمها وينالوا بها البصيرة الروحانية التي تمكّنهم من التمييز بين

الخير والشر والتغلب على العدو، بل كان فيها رسالة هداية ورحمة أيضًا.. بمعنى أنها كانت تنطوي على نبوءات عن بعثة الرسول الكريم ﷺ أيضًا، لكي لا يُحرَم أهل الكتاب من تصديق النبي الموعود عند بعثته؛ ومن أجل ذلك ترى أن الله تعالى قد أشار إلى تلك الأنباء في الآيات التالية فقال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.. أي يا محمد لم تكن مع موسى بالجانب الغربي حين أمرناه بتبليغ رسالات الله، ولم تكن شاهد عيان على تلك الواقعة.

لقد بين الله تعالى هنا أن المكان الذي رأى فيه موسى عليه السلام التجلي الإلهي على شكل نار لأول مرة كان في الجانب الغربي. وقد يراد منه الجانب الغربي من برية سيناء التي يوجد فيها جبل حوريب بحسب اعتقاد اليهود كما ورد في التوراة (الخروج١٩: ١-٣)؛ حيث تقول أن موسى عليه السلام خرج ذات مرة بالغنم، فساقها إلى "وراء البرية، وجاء إلى جبل الله حوريب، وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عُلّيقة" (الخروج ٣: ١-٢). ويرى علماء التوراة أن المراد من "وراء البرية" هو الجانب الغربي من برية سيناء. (Through The Bible p.12).

إذًا، فقد يراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أن المكان الذي نـــزلت فيه أنوار الله على موسى عليه السلام كان في الجانب الغربي من صحراء سيناء، وقد يراد به أنه كان في الجانب الغربي من الجزيرة العربية.

وجدير بالذكر أن كلمة ﴿الأمر﴾ قد وردت في القرآن الكريم بعدة معان، منها: الخَلق بإذن الله تعالى، وقضاؤه، ووحيه، وقد وردت هنا في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾ بمعنى وحي الله وكلامه.. والمعنى: حين كلّفنا موسى بتبليغ وحي الله ورسالته. وقد ورد لفظ ﴿الأمر﴾ بهذا المفهوم في آيات أخرى أيضًا كقوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ﴾(الجاثية:١٨).. أي آتيناهم بينات من الوحي، وكقوله تعالى: ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾(الحج:٦٨).. أي يجب ألا يخاصموك في كلام الله تعالى لأن فيه هداهم ولكنهم يجهلون حقيقة وحي الله تعالى، فاستمرّ في دعوتهم إليه تعالى.

فالله تعالى يقول في الآية قيد التفسير – مشيرًا إلى النبوءات الواردة عن بعثة رسوله ﷺ – لم تكن، يا محمد، مع موسى حين عهدنا إليه مهمة تبليغ رسالتنا. إذ لو كان موسى معاصرًا لك لقيل أن كليهما قاما بهذه المؤامرة، فمن المحال أن يقال أن موسى قد ادعى الرسالة تنفيذًا لهذه المؤامرة، إذ لم تكن موجودًا في الدنيا حين كلّفنا موسى برسالتنا بل قد خلا قبلك بقرون بل بألفي سنة، فما دام الوحي الذي نـــزل عليه يكشف صدقك فثبت أنك مرسل صادق من عند الله تعالى، إذ كيف يمكن أن تتآمر مع موسى الذي كان قبلك بألفي سنة وتقول له أن يدعي النبوة ويدلي بهذه الأنباء ليصدقك الناس بسببها؟! إن موسى ما ادعى النبوة إلا لأن الله تعالى بعثه رسولاً، فإنكار النبوءات الواردة في وحيه عن بعثتك ليس إنكارًا لك فحسب، بل هو إنكار لموسى أيضًا الذي بعثه الله رسولاً.

ثم يبين الله تعالى أن الناس نسوا هذه الأنباء لأننا: ﴿أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾.. أي خلقنا بعد موسى أجيالاً كثيرة ومضت عليها فترة طويلة حتى نسيتْ تاريخها ولم تتذكر أين تجلّينا على موسى، وما هي الأخبار الغيبية التي كشفناها عليه لدى هذا التجلي.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾. هذه الآية إشارة إلى الأحداث التي وقعت لموسى وبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر. لقد بين الله تعالى هنا أن موسى عليه السلام لما خرج بهم من مصر أتى إلى أهل مدين ثانية وأقام عندهم، وظل يزيد إيمانهم بإراءة آيات الله فترة طويلة.

تكشف لنا دراسة التوراة أيضًا أن موسى عليه السلام أقام في براري موآب ومدين نفسها بعدما خرج ببني إسرائيل، فخرج حموه للقائه وقدّم له اقتراحات كثيرة لتنظيم بني إسرائيل (الخروج ١٨)، ولكن نساء مدين أملن قلوبهم إلى أعمال وثنية، فأغار عليهم موسى وأباد القوم عن بكرة أبيهم (العدد ٢٥: ٢ والعدد ٣١: ١-٢). كما يتضح من التاريخ أنه بعد دمار مدين أتى حمو موسى إليه ليقيم عنده فأعطاه

أرضًا للإقامة عنده. (قدامة اليهود الكتاب الخامس الباب الثاني نقلاً عن أرض القرآن المجلد الثاني ص ١٩)

إذًا، فهذه الآية: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ تتحدث عن تلك الفترة التي جاء فيها موسى عليه السلام إلى مدين مرة ثانية، وأقام فيها فترة طويلة قضاها في تربية قومه وتنظيمهم.

بيد أنه من الممكن أن تكون هذه الآية تتحدث عن فترة إقامة موسى عليه السلام في مدين أول مرة، حيث أخبر الله تعالى أنه بدأ يُنـــزِل وحيه على موسى وهو لا يزال في مدين، وهنالك تنبأ موسى عن بعثة رسول يأتي من بعده. وقد تكون النبوءة المتعلقة بظهور النبي ﷺ قد نـــزلت على موسى عليه السلام مرتين: مرة أثناء إقامته بمدين، ومرة أخرى على جبل الطور، وذلك كما نـــزلت بعض سور القرآن الكريم مرتين: مرة في مكة المكرمة ومرة في المدينة المنورة. ومهما يكن، فمن المؤكد أن هذه الآية لا تتحدث عن أي نبي سوى موسى؛ إذ إن الحديث كله من أوله إلى آخره عن موسى عليه السلام، فقد ذكر الله تعالى هنا واقعة أخرى لموسى عليه السلام كدليل آخر على صدق محمد ﷺ حين ذهب موسى إلى مدين، حيث نبه الله تعالى أن محمدًا لم يكن مع موسى في مدين حين أدلى بهذه النبوءة عن ظهوره، وإن ما حدث مع موسى في مدين سيحصل مثله مع محمد، فكما أن موسى أصبح مظفرًا منصورًا كذلك سيكون محمد من المنصورين. كما نبّأ الله بذكر إقامة موسى في مدين أن موسى هرب من اضطهاد المصريين ولاذ بمدين، ففتح له رجل صالح من أهلها أبواب بيته، فأقام عنده ثماني سنين أو عشرا، كذلك فإن قوم محمد سيُخرجونه من مكة، فيذهب الله به إلى المدينة، فيقوم قوم من أهلها لنصرته فيفتحون له أبوابهم ويضحون لأجله بالنفس والنفيس. وكما أن موسى مكث في مدين ثماني سنين أو عشرا، كذلك سيقيم محمد (ﷺ) في المدينة ثماني سنين أو عشرا. وبالفعل قد حقق الله هذه المماثلة بين النبيين حيث فتح النبي ﷺ مكة في السنة الهجرية الثامنة ومكث في المدينة عشر سنين.

بيد أن النبي ﷺ يفضل على موسى في هذه المماثلة أيضًا حيث تزوج موسى عليه السلام بعد الهجرة، بينما تزوج النبي ﷺ خديجة قبل الهجرة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.. أي لم تكن يا محمد عند جبل الطور إذ أوحينا إلى موسى وأخبرناه ببعثتك، ولا شك أن هذا الخبر كان رحمة عظيمة من ربك لتنذر قومًا لم يُبعَث إليهم قبلك من نذير ولكي يتعظوا.

لا شك أن أهل مكة كانوا من أولاد إبراهيم عليه السلام، ولكنهم كانوا قد نسوا تعاليمه بحكم مرور قرون طويلة ووقعوا في الشرك والوثنية.

والنبوءة العظيمة التي تلقاها موسى عليه السلام عند جبل الطور بسيناء والمشار إليها في هذه الآية قد وردت في التوراة كالآتي:

"أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلَك، وأجعلُ كلامي في فمه، فيكلّمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلامًا لم أُوصِه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبي." (التثنية ١٨: ١٨-٢٠).

واعلم أن التوراة تذكر أن موسى عليه السلام قد تلقى هذه النبوءة على جبل الطور بعد خروجه من مصر. إذًا، فهذه هي تلك النبوءة العظيمة التي تشير إليها هذه الآية القرآنية حيث نبه الله تعالى منكري محمد ﷺ وقال: لم يكن محمد موجودًا عند الطور لما تنبأ موسى عن بعثته ﷺ، أم ترون أن موسى قد قام بهذه النبوءة بالتآمر مع محمد؟ فما دامت هذه النبوءة من عند الله خالق السماوات والأرض، وما دامت قد تحققت حرفيًا أمام أعينكم بعد مرور ألفي سنة، فكان حريًا بكم أن تسارعوا إلى الإيمان بهذا النبي الموعود وتذعنوا له لتنالوا نصيبًا من رحمة الله وبركاته التي هي منوطة بالإيمان به، ولكنكم لم تبالوا بهذه النبوءة العظيمة لموسى أيضًا، بل لما ظهر ذلك الموعود الذي كنتم تنتظرونه منذ ألفي سنة أصبحتم أول الكافرين به، ولم تألوا جهدًا في معارضته.

إن تفاصيل هذه النبوءة من سفر التثنية ١٨ غاية في الأهمية، وكلما تدبر فيها الإنسان انكشف عليه صدق النبي ﷺ بصورة أجلى، إذ تخبر هذه النبوءة ما يلي:

أولاً– أن هذا النبي الموعود لن يكون من بني إسرائيل، بل سيكون من إخوتهم.. أي مِن بني إسماعيل.

وثانيًا: أن هذا النبي الموعود سيأتي بشريعة مثل موسى، وأن وقائع حياته ستكون مماثلة لوقائع حياة موسى، إذ ورد فيها: "أقيم لهم نبيًا مِن وسط إخوتهم مثلَك". والبديهي أن النبي الموعود لا يمكن أن يُعتبر مثل موسى إلا إذا كان صاحب شريعة مثله، وكانت هناك مماثلة في وقائع حياتهما.

ثالثًا: قال الله تعالى "وأجعل كلامي في فمه".. أي أن الوحي الذي سينـــزل عليه سيكون بكلمات إلهيةً محددة، وليس أنه يبين أحكام الله تعالى بكلماته هو.

رابعًا: ورد في النبوءة: "فيكلّمهم بكل ما أوصيه به".. أي أنه سيلقى المعارضة الشديدة ويواجه أنواع الأخطار في سبيل تبليغ رسالة الله، ولكنه سيظل يبلغها كبطل مغوار غير خائف ولا هيّاب.

خامسًا: ورد في النبوءة أن النبي الموعود سيعرض على الناس تعاليمه باسم الله تعالى. ومن مفاهيم هذه الفقرة أن وحيه سيدحض الشرك دحضًا كاملاً.

سادسًا: أن الذين يكفرون بتعاليمه سيصبحون عرضة لعذاب الله تعالى.

سابعًا: أن الذي اعتبر نفسه مصداقًا لهذه النبوءة على سبيل الافتراء سيُقتل.

لا شك أن ما ورد في التراجم الأردية للتوراة هو: "سيُقتل"، ولكن هذه الترجمة ليست صحيحة، إنما الصحيح ما ورد في التراجم الإنجليزية وهو: (he shall die) .. أي أنه سيهلك.

والتدبر في كل هذه الجزئيات المختلفة لهذه النبوءة يكشف جليًا أن لا أحد كان مصداقًا لها إلا محمد ﷺ، وذلك للأسباب التالية:

أ: إن محمدًا ﷺ هو النبي الموعود الذي وُلد من بين إخوة بني إسحاق أي من بين بني إسماعيل.

ب: إن محمدًا ﷺ هو النبي الموعود الذي أعلن أنه مثيل لموسى والذي قال الله فيه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾(المزمل:١٦). فكما أُعطي موسى عليه السلام التوراة التي هي كتاب شريعة، كذلك قد أُعطي محمد ﷺ القرآن الكريم الذي هو شريعة كاملة. ثم إن وقائع حياته ﷺ تشبه وقائع حياة موسى عليه السلام. ثم كما بُعث الأنبياء والمجددون بعد موسى باستمرار لإصلاح أمته وتجديد دينه، حتى بُعث أخيرًا المسيح الناصري كخليفة ونائب له بعد ثلاثة عشر قرنًا، كذلك قد أخبر محمد ﷺ بظهور المجددين في أمته في كل قرن (أبو داود: كتاب الملاحم باب ما يذكر في قرن المئة)، ثم بظهور المسيح الموعود في الأخير الذي تتم على يده غلبة الإسلام ونشأته الثانية، حيث قال النبي ﷺ: "لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء" (البخاري: كتاب التفسير، سورة الجمعة).. والمراد من "رجل من هؤلاء".. أي رجل فارسي الأصل.

ت: ثم إن محمدًا رسول الله ﷺ هو النبي الموعود الذي وُضع في فمه كلام الله تعالى حتى قال تعالى عنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾(النجم:٤-٥).. أي أن محمدًا ﷺ لا يبين مشيئة الله بكلماته، بل يعرض على الدنيا ما نـــزل عليه من كلام الله فحسب؛ ولذلك قد سُمي القرآن الكريم أيضًا كلام الله (البقرة:٧٦)، وذلك لأنه من أوله إلى آخره ليس إلا كلام الله، أما صحف الأنبياء الآخرين فإن كلام الله فيها أقل من كلام البشر.

ث: ثم إن محمدًا ﷺ هو النبي الموعود الذي بلّغ الناس كلام الله تعالى بلا نقص ولا زيادة، رغم تعرُّضه لمعارضة شديدة. فلما نـــزل في أثناء حجة الوادع قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(المائدة:٤) قام النبي ﷺ بتذكير المسلمين بواجباتهم مرة أخرى، ثم قال في الأخير: "اللهم هل بلّغتُ"، فقال المسلمون كلهم بصوت رجل واحد: نُشهد الله أنك بلّغتَنا جميعًا رسالة الله. (السيرة النبوية لابن هشام: خطبة الرسول ﷺ في حجّة الوداع)

ج: ثم إن محمدًا ﷺ هو النبي الموعود الذي يفتتح كل باب من كتابه بقول الله:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وكأن كل مسلم عندما يبدأ تلاوة سورة من سور القرآن الكريم تتراءى أمامه نبوءة موسى عليه السلام هذه بأن النبي الموعود سيعرض على الناس ما نـــزل عليه من كلام الله بقوله: ﴿بسم الله﴾.

ح: ثم ورد في هذه النبوءة أن الذين يكفرون بتعاليم هذا النبي الموعود لن ينجوا من عقاب الله تعالى. وقد تحققت هذه الجزئية من النبوءة أيضًا بشكل جليّ، فإن جميع أولئك الذين قاموا لمعارضة النبي ﷺ هلكوا وبادوا، حتى إن جيوش كسرى وقيصر لما اصطدمت بالمسلمين مزّق الله مُلكهما كل ممزّق.

خ: وتقول هذه النبوءة إن الذي يعتبر نفسه مصداقًا لها كذبًا وافتراءً سيُهلكه الله ويخيّبه. وهذه الجزئية أيضًا تكشف صدق النبي ﷺ بجلاء، إذ يشهد التاريخ أن الأعداء لم يدّخروا وسعًا لقتله متّبعين كل طريق؛ مشروعا كان أم غير مشروع، ولكن الله تعالى أيده بنصره و لم يستطع العدو أن يضره شيئًا.

باختصار، يقول الله تعالى هنا لنبيه ﷺ: يا محمد متى كنتَ مع موسى عند جبل الطور حين أخبرناه بمجيئك؟ أأنت قلت له أن يدلي بهذه النبوءة؟ كلا، إنما هو فعل الله الذي هو عالم الغيب والذي أنبأ ببعثتك قبل ألفي سنة. فما لهؤلاء القوم لا ينتفعون من هذه النبوءات مطلقًا ويصرّون على إنكارك؟ إن الله تعالى لم يُدْلِ بهذه الأنباء قبل مدة طويلة إلا ليؤمن الناس بهذا النبي الموعود فينالوا نصيبًا من رحمة الله، وأيضًا لكي توقظ يا محمد من الرقاد قومًا: ﴿مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾.. أي تقوم بإنذار أهل مكة. لا شك أن أهل مكة كانوا من نسل إبراهيم عليه السلام، ولكنه قد خلا قبلهم بقرون كثيرة، وكذلك لما بُعث إسماعيل في الجزيرة العربية لم يكن نسله قد انتشر فيها بعد، فكان لزامًا أن يُبعث إليهم نبي جديد يدعوهم إلى الله تعالى ويثبّتهم على التوحيد الحقيقي.